رواية

حب على شاطئ الأحلام

محمد أحمد الصغير علي عيد

حب على شاطئ الأحلام

محمد أحمد الصغير علي عيد

رواية

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف ©

إهــداء

إلى روح أبي الطاهرة التي عانقت السماء... رحمك الله يا أبي وأسكنك فسيح جناته، وجعل قبرك روضة من رياض الجنة.

إلى أمي الغالية... نبع الحنان الذي لا ينضب، وشمس الدفء التي لا تغيب. شفاكِ الله وعافاكِ، وألبسكِ ثوب الصحة والعافية، وأطال في عمرك على طاعته.

إلى زوجتي الحبيبة... رفيقة الدرب وشريكة الحياة، سكني وسكينتي، وملاذي بعد الله.

إلى فلذات كبدي وثمرات فؤادي... أبنائي الأحباء:
روفيدة... نور قلبي وبهجة روحي
عبد الرحمن... فخري وعزوتي وامتداد اسمي
زينب... ريحانتي وزهرة حياتي
عبد العزيز... أملي المتجدد وفرحتي الدائمة

بارك الله فيكم جميعاً، وحفظكم من كل سوء، وجعلكم ذخراً للإسلام والمسلمين.

إلى إخوتي وأخواتي... سندي وعضدي في هذه الحياة.

إلى أصدقائي وزملائي... من شاركوني لحظات العمر، وتقاسموا معي أفراحه وأتراحه

إلى هؤلاء جميعاً... أهدي هذا العمل الأدبي "على شواطئ الأسرار"

الفصل الأول: على ضفاف الحلم

اللقاء الأول

كانت الإسكندرية تتنفس بهدوء في ذلك المساء الصيفي، حيث تتلاعب أشعة الشمس الذهبية المتلاشية على صفحة البحر المتلألئة. الهواء مشبع برائحة الملح والذكريات، والنوارس تحلق في السماء الزرقاء الصافية، تاركة ظلالها الخفيفة على الأمواج المتكسرة.

على رصيف الميناء الشرقي، وقف بيومي وحيداً، كاميرته القديمة "ميتشل 53 ملم" معلقة حول رقبته كتميمة سحرية. كان شاباً في أوائل العشرينات، بملامح حادة نحتها البحر والشمس، وعينين عميقتين تحملان نظرة متأملة كأنهما تريان ما لا يراه الآخرون. شعره الأسود المجعد تتلاعب به نسمات البحر، بينما يداه ترتعشان قليلاً وهو يضبط عدسة الكاميرا، محاولاً حبس لحظة انكسار موجة متمردة على صخرة عتيقة.

"اللحظة المثالية لا تتكرر أبداً،" همس لنفسه وهو يلتقط الصورة، مستمتعاً بصوت غالق الكاميرا الميكانيكي الذي يشبه نبضات قلبه المتسارعة كلما أمسك بالكاميرا.

فجأة، قطع صمت أفكاره صوت وقع أقدام خفيف على الرصيف الخشبي. التفت ليجد فتاة تقف على بعد خطوات منه، شعرها الأسود الطويل يتطاير مع نسيم البحر كأجنحة غراب ليلي. كانت ترتدي فستاناً أزرق فاتحاً يتراقص مع الهواء، وفي يدها كتاب بغلاف أزرق باهت.

نظراتهما تلاقت للحظة، وشعر بيومي بشيء غريب يتحرك في داخله، كأن البحر نفسه يتدفق بين ضلوعه. ابتسمت الفتاة ابتسامة خجولة، ثم اقتربت منه بخطوات متأنية.

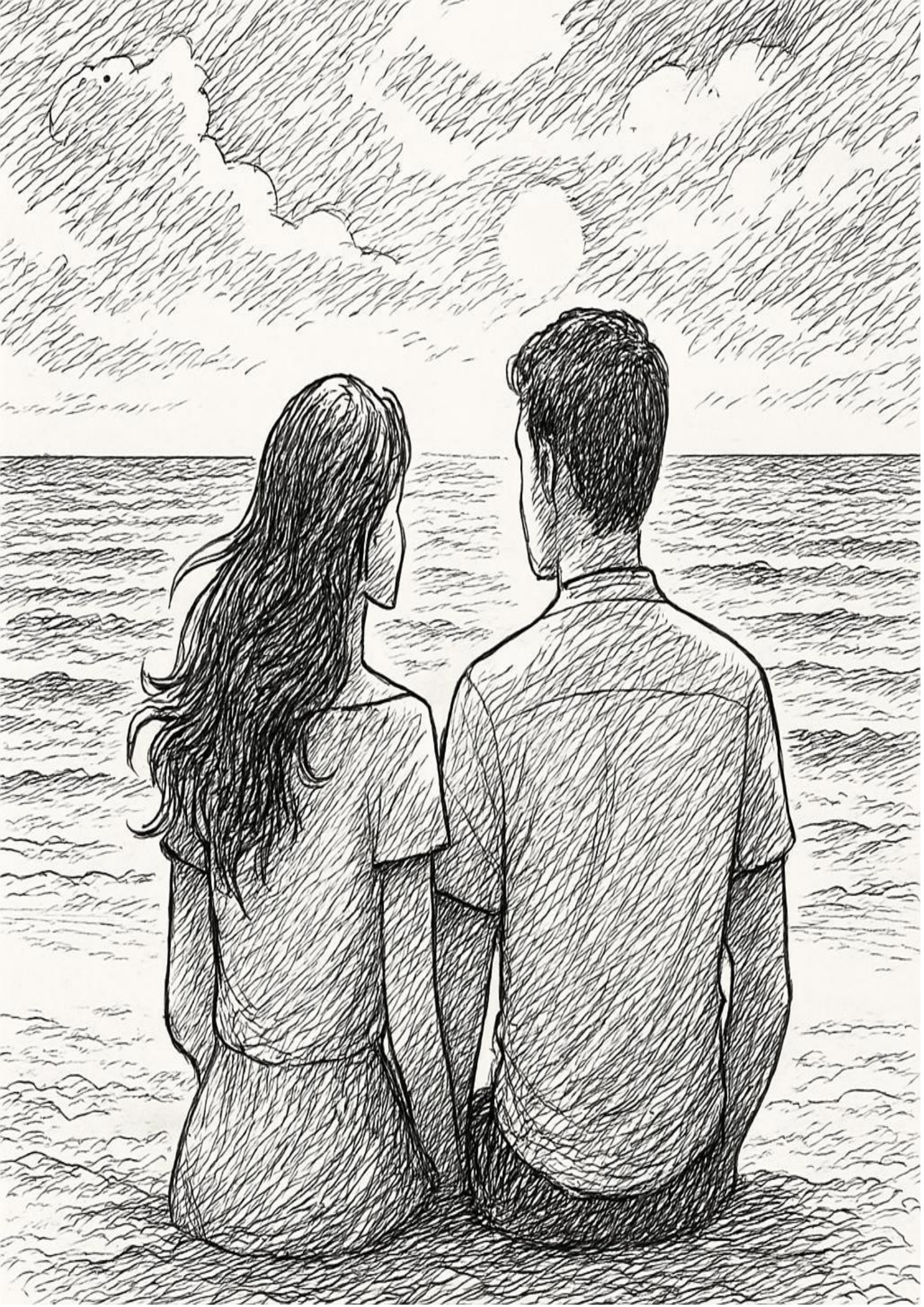

‘‘هل تظن أن البحر يغسل الأحلام أم يبلورها؟’’ سألته بنبرة هادئة، لكنها اخترقت صدره كسهم.

ارتبك بيومي للحظة، غير متوقع هذا السؤال الفلسفي من غريبة. لكنه استجمع ثقته وأجاب بصوت هادئ: ‘‘أعتقد أن البحر مثل السينما... يظهر لك الحقيقة، لكن مشوهةً بضوء القمر وانكسارات الموج.’’

ضحكت الفتاة ضحكة رقيقة، كأنه فك شفرة سرية، ورفعت الكتاب الذي تحمله نحو السماء: ‘‘لهذا أحببت كتاب فيسكونتي هذا. هو أيضاً كان يصور الواقع، لكن من خلال مرآة مكسورة.’’

دقق بيومي النظر في الكتاب، فإذا به كتاب إيطالي عن السينما الواقعية. شعر بدهشة ممزوجة بالفضول.

‘‘أنت تقرأين عن السينما الواقعية الإيطالية؟’’ سألها بإعجاب لم يستطع إخفاءه.

‘‘نعم، أدرس في معهد السينما بالقاهرة،’’ أجابت بابتسامة واثقة. ‘‘اسمي سلمى، سلمى الشاهد.’’

كانت سلمى من مواليد الإسكندرية، لكنها انتقلت للإقامة في القاهرة منذ سنوات لإكمال دراستها الجامعية. ورغم ذلك، كانت تحرص على زيارة مدينتها الأم من فترة إلى أخرى، خاصة في العطلات الصيفية، حيث تستعيد ذكرياتها مع البحر والشاطئ الذي نشأت بجواره.

كان شاطئ الإسكندرية يمتد أمامه كلوحة فنية متحركة، مزيج من الألوان والأصوات والروائح التي لا تجدها في أي مكان آخر. البحر المتوسط بزرقته العميقة التي تتدرج من الفيروزي قرب الشاطئ إلى الأزرق الداكن في الأفق، والأمواج التي تتكسر على الصخور بإيقاع متناغم كأنها موسيقى طبيعية، والنسيم المحمل برائحة الملح والأسماك الطازجة.

كورنيش الإسكندرية، ذلك الشريط الساحلي الممتد على طول المدينة، كان مسرحاً للحياة بكل تناقضاتها. العائلات تفترش الأرصفة بحصيرها وسلال طعامها، الشباب يتسابقون على دراجاتهم، الباعة الجائلون ينادون على بضائعهم بأصوات تختلط مع صوت البحر، والعشاق يتمشون يداً بيد تحت ضوء القمر الذي ينعكس على صفحة الماء.

هنا، في هذه المدينة البحرية العريقة، كان الزمن يسير بإيقاع مختلف. الحياة أبطأ، أكثر تأملاً، أكثر ارتباطاً بالطبيعة والتاريخ. المباني القديمة ذات الطراز الأوروبي تقف شامخة كشواهد على عصر مضى، والقلعة القديمة تطل على البحر كحارس أبدي للمدينة.

"الإسكندرية تسكنني مهما ابتعدت عنها،" كانت تقول دائماً. "أعيش في القاهرة، لكن قلبي يظل هنا، على هذا الشاطئ."

‘‘بيومي،’’ قدم نفسه، ممدداً يده لمصافحتها. ‘‘بيومي من الأنفوشي، أعيش هنا في الإسكندرية.’’

كان بيومي يسكن في الإسكندرية منذ طفولته، وكان يعشق البحر والشاطئ ويقضي معظم وقته هناك.

تصافحا، وشعر بيومي بدفء يدها الناعمة. ‘‘وماذا تفعل بهذه الكاميرا القديمة؟’’ سألته سلمى، مشيرة إلى الميتشل المعلقة حول رقبته.

‘‘أحاول التقاط الحقيقة،’’ أجاب بيومي بابتسامة خجولة. ‘‘أو على الأقل، حقيقتي أنا.’’

‘‘هل يمكنني رؤية بعض صورك؟’’ سألت سلمى بفضول صادق.

تردد بيومي للحظة، ثم أخرج من حقيبته مجموعة صغيرة من الصور التي التقطها مؤخراً. صور للصيادين العجائز بوجوههم المجعدة كخريطة قديمة، لأطفال يلعبون

على الشاطئ بفرح بريء، لشوارع الإسكندرية الضيقة المزدحمة بالحياة والذكريات.

تأملت سلمى الصور بصمت، وعيناها تتسعان بالإعجاب مع كل صورة تراها. "هذه ليست مجرد صور يا بيومي،" قالت أخيراً، ناظرة إليه بعينين تلمعان بالحماس. "أنت لا تلتقط المشاهد فقط، بل تلتقط روح المكان والإنسان. هذه موهبة نادرة."

شعر بيومي بالخجل والفخر في آن واحد. لم يعتد سماع مثل هذا الإطراء على عمله، خاصة من شخص يدرس السينما.

"لماذا لا تفكر في الالتحاق بمعهد السينما؟" سألته سلمى فجأة. "موهبتك تستحق أكثر من مجرد صور عابرة."

"معهد السينما؟" تساءل بيومي، وكأن الفكرة غريبة عليه. "لكنني... الإسكندرية هي بيتي، هي ملهمتي."

"والإسكندرية ستظل هنا، تنتظرك،" قالت سلمى بنبرة حكيمة تتجاوز سنوات عمرها. "لكن أحياناً، علينا أن نغادر المكان الذي نحبه لنكتشف أنفسنا بشكل أعمق."

صمت بيومي، متأملاً كلماتها. كان هناك شيء في طريقة حديثها، في نظرتها للعالم، جعله يشعر بأنها تفهم شيئاً لم يفهمه بعد.

"هل أنت من الإسكندرية أيضاً؟" سألها، محاولاً تغيير مجرى الحديث.

"نعم، ولدت هنا، لكنني أعيش في القاهرة الآن بسبب الدراسة. أزور أهلي من وقت لآخر،" أجابت سلمى، ثم أضافت بابتسامة: "الإسكندرية تجري في دمي مثلك تماماً."

بدأت الشمس بالغروب، تاركة خلفها سماءً ملتهبة بألوان البرتقالي والأحمر. انعكست الألوان على وجه سلمى، مانحة بشرتها توهجاً ذهبياً.

‘‘يجب أن أذهب الآن،’’ قالت سلمى، ناظرة إلى ساعتها. ‘‘لكن... هل يمكننا أن نلتقي غداً؟ أود أن أسمع المزيد عن صورك وعن رؤيتك للعالم.’’

شعر بيومي بقلبه يخفق بقوة. ‘‘بالتأكيد،’’ أجاب بسرعة، ثم أضاف: ‘‘هناك مقهى قديم في الأنفوشي، يطل على البحر مباشرة. يمكننا أن نلتقي هناك في الصباح.’’

‘‘سأكون هناك،’’ ابتسمت سلمى، ثم استدارت لتمضي. بعد بضع خطوات، توقفت والتفتت إليه: ‘‘بالمناسبة، صورك تذكرني بأعمال كارتييه بريسون. هل تعرفه؟’’

‘‘الفرنسي؟ نعم، هو أحد ملهميني،’’ أجاب بيومي بدهشة وإعجاب.

‘‘كنت متأكدة من ذلك،’’ ابتسمت سلمى ابتسامة أخيرة، ثم اختفت في غروب الإسكندرية الساحر.

وقف بيومي مكانه لدقائق طويلة، يراقب المكان الذي اختفت فيه، وقلبه يخفق بإيقاع جديد لم يعهده من قبل. شعر كأن شيئاً ما في داخله قد تغير، كأن موجة كبيرة قد اجتاحت شاطئ روحه وأعادت تشكيله.

رفع كاميرته والتقط صورة أخيرة للبحر في تلك اللحظة - البحر الذي شهد على لقاء سيغير مجرى حياته إلى الأبد.

بذور الحلم

استيقظ بيومي في صباح اليوم التالي على صوت النوارس وهمهمة البحر القريب. كانت غرفته الصغيرة فوق المقهى القديم في حي الأنفوشي تغمرها أشعة الشمس الذهبية المتسللة عبر النافذة المفتوحة. على الجدران، علق عشرات الصور التي التقطها للإسكندرية - للبحر بمزاجاته المختلفة، للصيادين وهم يعودون بشباكهم في الفجر، للشوارع الضيقة المتعرجة التي تحكي قصصاً لا تنتهي.

نهض من فراشه بحماس غير معتاد، وتوجه نحو حوض الغسيل الصغير. نظر إلى المرآة المشروخة، رأى وجهه الشاب ذا الملامح الحادة والعينين العميقتين. مرر يده على ذقنه، متحسساً شعيرات خفيفة بدأت بالظهور. حلق بسرعة، ارتدى قميصاً أزرق باهتاً وبنطالاً من الجينز، ثم علق كاميرته حول رقبته كعادته.

قبل أن يغادر، توقف أمام صورة معلقة بإطار خشبي بسيط - صورة لوالده الراحل، يقف على مركب صيد، يبتسم للكاميرا بثقة وكبرياء. "صباح الخير يا أبي،" همس بيومي، ملامساً الصورة بأطراف أصابعه.

نزل الدرج الخشبي المتآكل إلى المقهى في الطابق الأرضي. كان المكان هادئاً في تلك الساعة المبكرة، باستثناء بعض الصيادين العائدين من رحلة الفجر. المالك العجوز، عم حسن، كان يعد الشاي على موقد قديم، رائحة الهيل والقرفة تملأ المكان.

"صباح الخير يا بيومي،" حياه عم حسن بابتسامة ودودة كشفت عن أسنان متباعدة.

"مستيقظ باكراً اليوم؟"

"لدي موعد،" أجاب بيومي بابتسامة خجولة.

"موعد؟" رفع عم حسن حاجبيه الكثيفين بفضول. "مع من؟"

"فتاة التقيت بها بالأمس على رصيف الميناء،" اعترف بيومي، وقد احمرت وجنتاه قليلاً.

ضحك عم حسن ضحكة عميقة. ‘‘آه، البحر... دائماً ما يجمع القلوب المتشابهة. والدك، الله يرحمه، التقى بوالدتك على هذا الشاطئ نفسه.’’

جلس بيومي على كرسي خشبي متآكل، وعم حسن يضع أمامه كوباً من الشاي الساخن. ‘‘هل تعتقد أن معهد السينما فكرة جيدة يا عم حسن؟’’ سأل فجأة.

توقف عم حسن عن مسح الطاولة، ونظر إلى بيومي بدهشة. ‘‘معهد السينما؟ في القاهرة؟’’

أومأ بيومي برأسه. ‘‘الفتاة التي التقيت بها، سلمى، تدرس هناك. تقول إن موهبتي في التصوير تستحق أكثر من مجرد صور عابرة.’’

جلس عم حسن أمامه، متأملاً وجهه الشاب. ‘‘أتعرف يا بيومي، منذ أن كنت طفلاً صغيراً وأنت تحمل تلك الكاميرا القديمة التي ورثتها عن والدك. كنت ترى العالم بطريقة مختلفة عن الآخرين. ربما حان الوقت لتشارك رؤيتك مع العالم.’’

‘‘لكن الإسكندرية...’’ بدأ بيومي، لكن عم حسن قاطعه بإشارة من يده المجعدة.

‘‘الإسكندرية ستظل هنا، تنتظرك. البحر لا يتغير، يا ولدي. يمكنك أن تغادر وتعود، وستجده كما هو، ينتظرك بصبر.’’

كلمات عم حسن صدى كلمات سلمى بالأمس، وشعر بيومي بشيء يتحرك في داخله، كأن فكرة كانت نائمة بداخله لسنوات قد استيقظت فجأة.

قبل أن يتمكن من الرد، فتح باب المقهى، ودخلت سلمى. كانت ترتدي فستاناً أبيض بسيطاً وصندلاً جلدياً، وشعرها الأسود مربوط بشريط أزرق. بدت مختلفة في ضوء النهار - أكثر واقعية، لكن لا تقل سحراً.

نهض بيومي بسرعة، قلبه يخفق بقوة. ‘‘سلمى! لم أتوقع وصولك مبكراً هكذا.’’

ابتسمت سلمى: ‘‘أحب الصباح في الإسكندرية. المدينة تبدو كأنها تستيقظ من حلم جميل.’’

قدم بيومي سلمى إلى عم حسن، الذي رحب بها بدفء. "أي صديقة لبيومي هي صديقة لي،" قال، وهو يضع أمامها كوباً من الشاي. "بيومي كان يتحدث عن معهد السينما للتو."

نظرت سلمى إلى بيومي بدهشة حنان. "حقاً؟ هل تفكر في الأمر جدياً؟"

"أفكر فقط،" أجاب بيومي بتردد. "الفكرة... جديدة علي."

"دعيني أخبرك شيئاً عن بيومي،" تدخل عم حسن، موجهاً حديثه لسلمى. "عندما كان في العاشرة من عمره، وقف على هذا الشاطئ خلال عاصفة شديدة، والجميع يختبئ في بيوتهم، وهو يلتقط صوراً للأمواج الغاضبة. كان يقول إنه يريد أن يرى وجه البحر الحقيقي."

ضحكت سلمى، ناظرة إلى بيومي بإعجاب. "هذا يشبهك تماماً."

"كان والده، الله يرحمه، صياداً شجاعاً،" استمر عم حسن. "لكن بيومي اختار أن يصطاد اللحظات بدلاً من الأسماك. وأعتقد أنه اصطاد لحظات استثنائية."

شعر بيومي بالخجل والفخر في آن واحد. "هيا بنا،" قال لسلمى، مغيراً الموضوع. "دعيني أريك الإسكندرية الحقيقية."

خرجا من المقهى إلى شوارع الأنفوشي المزدحمة بالحياة. قاد بيومي سلمى عبر أزقة ضيقة متعرجة، حيث الغسيل المنشور بين المباني القديمة، والأطفال يلعبون بكرات قماشية، والنساء يتحدثن من شرفة إلى أخرى.

"هذه هي الإسكندرية التي أحبها،" قال بيومي، وهو يلتقط صورة لطفل يضحك وهو يلاحق قطة شاردة. "ليست الإسكندرية السياحية، بل الإسكندرية الحقيقية، النابضة بالحياة."

راقبت سلمى بيومي وهو يعمل، منبهرة بالطريقة التي يتحرك بها، كيف يتواصل مع الناس، كيف يرى زوايا لا يراها غيره. ‘‘أنت تملك عيناً استثنائية يا بيومي،’’ قالت بإعجاب صادق.

توقف بيومي عن التصوير، ونظر إليها. ‘‘لماذا اخترت دراسة السينما؟’’ سألها بفضول.

تنهدت سلمى، ونظرت إلى البعيد. ‘‘لأنني أؤمن أن السينما هي أقوى وسيلة للتعبير عن الحقيقة. ليس الحقيقة السطحية، بل الحقيقة العميقة، حقيقة الروح البشرية.’’

‘‘مثل نيوريالزم روسيليني وفيسكونتي؟’’ سأل بيومي، مشيراً إلى الكتاب الذي كانت تحمله بالأمس.

ابتسمت سلمى بسعادة. ‘‘بالضبط! أنت تعرف السينما الإيطالية إذن؟’’

‘‘ليس بعمق، لكنني قرأت عنها،’’ اعترف بيومي. ‘‘أحب فكرة تصوير الواقع كما هو، دون تجميل أو تزييف.’’

‘‘هذا ما تفعله بالضبط في صورك،’’ قالت سلمى. ‘‘أنت تلتقط الواقع، لكن من خلال عينيك، تضيف إليه شيئاً من روحك.’’

استمرا في التجول طوال الصباح، من الأنفوشي إلى المنشية، ومن هناك إلى محطة الرمل. بيومي يلتقط الصور، وسلمى تشاركه آراءها وأفكارها. تحدثا عن السينما والفن والحياة، وكأنهما يعرفان بعضهما منذ سنوات.

في الظهيرة، جلسا في مقهى صغير يطل على البحر. الشمس تتوسط السماء، والبحر يتلألأ تحتها كمرآة فضية.

‘‘أتعرف،’’ قالت سلمى، وهي تحرك ملعقتها في كوب القهوة، ‘‘فترة التقديم لمعهد السينما تبدأ الشهر المقبل. لو قدمت أوراقك، وأرفقت بعض صورك هذه، أنا متأكدة أنهم سيقبلونك.’’

نظر بيومي إلى البحر، متأملاً. الفكرة التي بدت غريبة بالأمس، أصبحت اليوم أكثر واقعية، أكثر إمكانية.

"ماذا عن حياتي هنا؟ غرفتي، المقهى، البحر..." تساءل بصوت مسموع.

"كما قلت لك، الإسكندرية ستظل هنا،" أجابت سلمى بنعومة. "وأنت ستعود إليها، لكن بعينين جديدتين، برؤية أوسع."

صمت بيومي، يفكر في كلماتها. ثم سألها فجأة: "كم ستبقين في الإسكندرية؟"

"أسبوعاً آخر،" أجابت سلمى. "ثم أعود إلى القاهرة للتحضير للفصل الدراسي الجديد."

"إذن لدينا أسبوع،" قال بيومي، وقد اتخذ قراراً. "أسبوع لتريني المزيد عن عالم السينما، وأسبوع لأريك المزيد عن الإسكندرية الحقيقية."

ابتسمت سلمى ابتسامة واسعة. "اتفقنا."

وهكذا بدأت صداقة عميقة بين بيومي وسلمى، صداقة ستتحول مع الوقت إلى شيء أعمق وأكثر تعقيداً. كل يوم، كانا يلتقيان في مكان مختلف في الإسكندرية - تارة على الكورنيش، وتارة في مكتبة الإسكندرية، وتارة في المتحف اليوناني الروماني. سلمى تشارك بيومي معرفتها بالسينما، تحدثه عن المخرجين العظماء، عن تقنيات التصوير، عن قوة الصورة في رواية القصص. وبيومي يشاركها حبه للإسكندرية، يريها زوايا خفية من المدينة، يعرفها على شخصيات من حياته اليومية، يلتقط لها صوراً تظهر جمالها الطبيعي الذي لا يحتاج إلى تجميل.

في اليوم الخامس من لقائهما، جلسا على الشاطئ في المساء، يراقبان غروب الشمس. البحر هادئ، والسماء تتلون بألوان الذهب والبرتقالي.

‘‘غداً سنلتقي بشخص مختلف،’’ قال بيومي فجأة. ‘‘امرأة عجوز تجلس كل يوم على هذا الشاطئ منذ عشرين عاماً. يقولون إنها فقدت ابنها في البحر، وهي تنتظر عودته.’’

‘‘هل هذا حقيقي؟’’ سألت سلمى بفضول.

‘‘لا أحد يعرف،’’ أجاب بيومي. ‘‘لكنها تملك حكمة غريبة. تحدثت معها مرات عديدة، والتقطت لها صوراً. عيناها... عيناها تحكيان قصصاً لا تنتهي.’’

في اليوم التالي، التقيا بالمرأة العجوز. كانت تجلس على صخرة كبيرة، ترتدي ثوباً أسود بالياً، وتلف رأسها بوشاح أزرق باهت. عيناها الزرقاوان الباهتتان تحدقان في البحر بانتظار لا ينتهي.

‘‘صباح الخير يا خالتي،’’ حياها بيومي باحترام.

رفعت المرأة العجوز عينيها إليه، ثم إلى سلمى. ابتسمت ابتسامة حزينة. ‘‘أحضرت صديقتك اليوم يا بيومي؟’’

‘‘نعم، هذه سلمى،’’ قدمها بيومي. ‘‘تدرس السينما في القاهرة.’’

‘‘السينما،’’ كررت المرأة العجوز، كأنها تتذوق الكلمة. ‘‘الأحلام المصورة. جميل أن تصنع الأحلام في زمن قاسٍ.’’

جلسا بجانبها، والمرأة تحكي لهما قصصاً عن الإسكندرية القديمة، عن البحر وأسراره، عن الحب والفقد والانتظار. بيومي يلتقط صوراً لها من حين لآخر، وسلمى تستمع بانبهار، كأنها تسمع حكايات من عالم آخر.

‘‘أنت ستغادر قريباً، أليس كذلك؟’’ سألت المرأة العجوز بيومي فجأة.

تبادل بيومي وسلمى نظرات مندهشة. ‘‘كيف عرفت؟’’ سأل بيومي.

‘‘عيناك،’’ أجابت المرأة ببساطة. ‘‘تحملان نظرة الرحيل. لكن لا تقلق، ستعود. البحر يجذب أبناءه دائماً للعودة.’’

ثم التفتت إلى سلمى: ‘‘وأنت، يا فتاة، ستكونين جسره للعودة.’’

شعرت سلمى بقشعريرة تسري في جسدها. كلمات المرأة العجوز بدت كنبوءة غامضة.

عندما غادرا، كان بيومي صامتاً، متأملاً. ‘‘هل تعتقدين أنها تعرف شيئاً لا نعرفه؟’’ سأل سلمى.

‘‘ربما،’’ أجابت سلمى بهدوء. ‘‘أو ربما هي فقط تقرأ ما هو مكتوب في عيوننا.’’

في اليوم الأخير قبل عودة سلمى إلى القاهرة، التقيا على الكورنيش. الشمس تغرق ببطء في البحر، تاركة خلفها سماءً ملتهبة بألوان البرتقالي والأحمر.

‘‘سأفتقد هذه المحادثات،’’ قال بيومي، صوته يحمل نبرة حزن لم يعتد عليها.

نظرت إليه سلمى بعينين عميقتين كالبحر: ‘‘لا داعي لافتقادها. فكر في الأمر جدياً يا بيومي. تعال إلى القاهرة، التحق بالمعهد. عيناك ترى ما لا يراه الكثيرون، وهذا ما تحتاجه السينما.’’

‘‘الإسكندرية هي بيتي، هي ملهمتي،’’ تمتم بيومي.

‘‘والإسكندرية ستظل هنا، تنتظرك. لكن أحياناً، علينا أن نغادر المكان الذي نحبه لنكتشف أنفسنا بشكل أعمق،’’ قالت سلمى، ثم أضافت بابتسامة: ‘‘بالإضافة إلى ذلك، ستجد من يشاركك شغفك هناك.’’

قبل أن تغادر، كتبت له عنوان بريدها الإلكتروني ورقم هاتفها على قصاصة ورق.

‘‘أخبرني عندما تقرر،’’ قالت، ثم أضافت بصوت أكثر خفوتاً: ‘‘سأنتظر.’’

وقف بيومي على الكورنيش لساعات بعد رحيلها، يراقب البحر ويفكر في كلماتها. شيء ما في داخله قد تغير، كأن موجة كبيرة قد اجتاحت شاطئ روحه وأعادت تشكيله.

خطوة نحو الحلم

مرت أسابيع بعد رحيل سلمى، وبيومي يعيش في حالة من التردد والتفكير. في الصباح، يخرج كالمعتاد للتصوير في شوارع الإسكندرية، لكن شيئاً ما تغير في نظرته للمدينة. بدأ يرى تفاصيل لم يلاحظها من قبل، زوايا جديدة، قصصاً مختلفة تنتظر من يرويها.

في المساء، يجلس في غرفته، يقرأ الكتب التي أوصته بها سلمى عن السينما والتصوير، يشاهد الأفلام التي تحدثت عنها، يفكر في إمكانية حياة مختلفة في القاهرة.

في أحد الأيام، وبينما كان يجلس في المقهى القديم، دخلت فتاة شابة لم يرها من قبل. كانت ترتدي نظارات سميكة، وتحمل كتاباً ضخماً. جلست في ركن هادئ، وبدأت بالقراءة.

دفعه الفضول للاقتراب منها. ‘‘مرحباً، لم أرك هنا من قبل،’’ قال بلطف.

رفعت الفتاة عينيها من الكتاب، ونظرت إليه بفضول. ‘‘أنا وداد، جئت لزيارة خالتي التي تعيش في الحي. وأنت؟’’

‘‘بيومي، أعيش هنا،’’ أجاب، مشيراً إلى الطابق العلوي. ثم لاحظ عنوان الكتاب الذي تقرأه: ‘‘فلسفة الظل في السينما الآسيوية’’.

‘‘أنت تقرأين عن السينما؟’’ سأل بدهشة.

ابتسمت وداد. ‘‘نعم، أدرس في معهد السينما بالقاهرة. قسم النقد السينمائي.’’

شعر بيومي بقشعريرة تسري في جسده. كأن القدر يرسل له إشارة أخرى.

‘‘صديقتي سلمى تدرس هناك أيضاً،’’ قال بحماس. ‘‘سلمى الشاهد، هل تعرفينها؟’’

‘‘سلمى؟ نعم، بالطبع! نحن في نفس الدفعة،’’ أجابت وداد بابتسامة. ‘‘عالم صغير، أليس كذلك؟’’

جلس بيومي معها، وبدآ في حديث طويل عن السينما. وداد تحدثت عن السينما الآسيوية، عن مفهوم الظل والضوء في أفلام كوروساوا وأوزو، عن الفلسفة الشرقية وتأثيرها على الفن البصري.

"أنت تلتقط صوراً؟" سألته، مشيرة إلى الكاميرا المعلقة حول رقبته.

"نعم، هذه هوايتي... أو ربما أكثر من هواية،" أجاب بيومي.

"هل يمكنني رؤية بعض أعمالك؟" سألت وداد بفضول.

أراها بيومي بعض صوره، وكانت ردة فعلها مشابهة لردة فعل سلمى - الإعجاب، الدهشة، التقدير لموهبته.

"يجب أن تفكر جدياً في الالتحاق بالمعهد،" قالت وداد بحماس. "موهبتك استثنائية، وستتطور أكثر مع التدريب المناسب."

"هذا ما قالته سلمى أيضاً،" ابتسم بيومي.

"وهي محقة،" أكدت وداد. "المعهد ليس فقط مكاناً للتعلم، بل هو مجتمع من المبدعين، من الناس الذين يرون العالم بطريقة مختلفة، تماماً مثلك."

استمرا في الحديث حتى المساء، وعندما غادرت وداد، شعر بيومي بأن قراره قد نضج أخيراً. عاد إلى غرفته، وكتب رسالة إلكترونية قصيرة لسلمى:

"قررت التقديم للمعهد. ساعديني في معرفة الخطوات التالية. - بيومي"

في صباح اليوم التالي، ذهب بيومي للقاء المرأة العجوز على الشاطئ. كانت في مكانها المعتاد، تحدق في البحر بانتظار أبدي.

"صباح الخير يا خالتي،" حياها كالمعتاد.

"قررت إذن،" قالت المرأة دون أن تنظر إليه، كأنها كانت تنتظر قدومه.

"نعم،" أجاب بيومي، غير مندهش من معرفتها. "سأذهب إلى القاهرة، سألتحق بمعهد السينما."

‘‘جيد،’’ أومأت المرأة برأسها. ‘‘البحر سيكون هنا عندما تعود. وستعود مختلفاً، أقوى، أكثر وضوحاً.’’

‘‘هل يمكنني التقاط صورة أخيرة لك؟’’ سأل بيومي.

ابتسمت المرأة ابتسامة نادرة، ونظرت مباشرة إلى عدسة الكاميرا. التقط بيومي الصورة، وشعر بأنه التقط لحظة خاصة جداً - لحظة وداع، لحظة بداية.

في الأسابيع التالية، انشغل بيومي بالتحضير للانتقال إلى القاهرة. قدم أوراقه للمعهد، مرفقاً بها مجموعة من أفضل صوره. سلمى ساعدته عبر الهاتف والبريد الإلكتروني، موجهة إياه خلال عملية التقديم المعقدة.

وفي يوم صيفي حار، وصله خطاب القبول. فتحه بيدين مرتعشتين، وقرأ السطور الأولى: ‘‘يسرنا إبلاغكم بقبولكم في معهد السينما...’’

شعر بمزيج من الفرح والخوف والحماس. ركض إلى المقهى، حيث كان عم حسن يعد الشاي كالمعتاد.

‘‘قبلوني!’’ صاح بيومي، ملوحاً بالخطاب. ‘‘قبلوني في المعهد!’’

ابتسم عم حسن ابتسامة واسعة، وفتح ذراعيه لاحتضان بيومي. ‘‘مبروك يا ولدي! كنت أعرف أنهم سيرون موهبتك.’’

‘‘سأغادر بعد أسبوعين،’’ قال بيومي، وقد بدأ يستوعب حقيقة التغيير القادم في حياته.

‘‘وسنكون هنا ننتظر عودتك،’’ طمأنه عم حسن. ‘‘أنا والبحر والإسكندرية كلها.’’

في الأيام التالية، قضى بيومي وقته في توثيق الإسكندرية بكاميرته، كأنه يريد أخذ كل تفاصيلها معه إلى القاهرة. التقط صوراً للبحر في كل أوقات اليوم، للشوارع الضيقة، للمقاهي القديمة، للوجوه المألوفة التي سيفتقدها.

وفي اليوم الأخير قبل سفره، وقف على الشاطئ عند الغروب، كاميرته في يده، والبحر أمامه يتلون بألوان الشفق. التقط صورة أخيرة، ثم همس للبحر: "سأعود."

في صباح اليوم التالي، حزم حقائبه القليلة - ملابسه، كتبه، وبالطبع، كاميرته القديمة. ودع عم حسن بعناق طويل، وعده الرجل العجوز بالاعتناء بغرفته حتى عودته.

وهكذا، غادر بيومي الإسكندرية متجهاً إلى القاهرة، حاملاً معه أحلامه وذكرياته وصوره. كان قلبه يخفق بقوة، مزيج من الخوف والحماس للمغامرة الجديدة التي تنتظره.

لم يكن يعلم أن هذه الخطوة ستغير حياته إلى الأبد، وأن سلمى، الفتاة التي التقاها على رصيف الميناء، ستصبح أكثر من مجرد صديقة أو مرشدة. ستصبح شريكة حلمه، ملهمته، وحبه الأول والأخير.

الفصل الثاني: أضواء القاهرة

اللقاء الأول

كانت القاهرة تستقبل الليل بأضوائها المتلألئة التي تنعكس على صفحة النيل كنجوم سقطت من السماء. في محطة مصر، وقف بيومي يحمل حقيبته المتواضعة وكاميرته القديمة المعلقة حول رقبته، يتأمل المدينة التي طالما حلم بها. كانت الإسكندرية لا تزال تسكن قلبه، لكن القاهرة كانت تنادي روحه بصوت السينما الذي لا يقاوم.

كانت القاهرة عالماً مختلفاً تماماً عن الإسكندرية. هنا، كل شيء أسرع، أكثر صخباً، أكثر كثافة. المباني تتزاحم حتى تحجب السماء، والشوارع تضج بالسيارات والناس على مدار الساعة، والهواء ثقيل بدخان العوادم ورائحة الطعام المتنوعة من المطاعم المنتشرة في كل زاوية.

نهر النيل يشق المدينة كشريان حياة وسط الكتل الخرسانية، يمنحها لحظات من الهدوء والجمال وسط الضجيج. على ضفافه، تقف الفنادق الفخمة والمطاعم العائمة، وتبحر المراكب السياحية محملة بالضحكات والموسيقى.

في القاهرة، كان الزمن يركض. الناس دائماً في عجلة من أمرهم، يتنقلون بين العمل والدراسة والترفيه بإيقاع محموم. المدينة لا تنام أبداً، فعندما تهدأ حركة النهار، تبدأ حياة الليل بأضوائها الملونة وموسيقاها الصاخبة.

كان حلم بيومي منذ صغره أن يصبح مخرجاً سينمائياً، ولم تكن هوايته في التصوير إلا خطوة أولى نحو هذا الحلم. بعد تخرجه من الثانوية العامة، تقدم بيومي بأوراقه إلى المعهد العالي للسينما في القاهرة، مرفقاً معها ملفاً من الصور التي التقطها على مدار السنوات الماضية.

كانت المنافسة شديدة، فالمعهد لا يقبل سوى عدد محدود من الطلاب كل عام. لكن موهبة بيومي في التقاط الصور التي تحكي قصصاً كاملة، وشغفه الواضح بالسينما، جعلا لجنة القبول تمنحه فرصة الالتحاق بقسم الإخراج السينمائي.

"أنت لا تلتقط صوراً فحسب، بل تروي قصصاً،" قال له رئيس لجنة القبول. "هذا بالضبط ما نبحث عنه في مخرجي المستقبل."

كان بيومي يسافر أسبوعياً من الإسكندرية إلى القاهرة لحضور محاضراته في معهد السينما، مستمتعاً بالتنقل بين المدينتين رغم إرهاق السفر.

‘‘هل أنت ضائع؟’’ جاءه صوت أنثوي رقيق من خلفه.

التفت بيومي ليجد فتاة ترتدي نظارات سوداء كبيرة وتحمل كتاباً عن تاريخ السينما الإيطالية. للحظة، بدت له غريبة، ثم اتسعت عيناه بدهشة.

‘‘سلمى؟ سلمى الشاهد؟’’

ابتسمت الفتاة ابتسامة عريضة وهي تخلع نظارتها. ‘‘لم أتوقع أن تتذكرني بعد شهرين من لقائنا في الإسكندرية.’’

‘‘كيف أنسى الشخص الذي غيّر مسار حياتي بجملة واحدة؟’’ قال بيومي وهو يتذكر كلماتها له على شاطئ الأنفوشي: ‘‘أنت لا تنتمي إلى هنا فقط، عينك تستحق أن ترى العالم من خلال عدسة أكبر.’’

ضحكت سلمى وهي تعدل حقيبتها على كتفها. ‘‘إذن، قررت أخيراً الالتحاق بمعهد السينما؟’’

‘‘نعم، وصلت للتو. غداً موعد المقابلة الشخصية.’’

‘‘حسناً، لا يمكنني ترك مصور موهوب مثلك يضيع في شوارع القاهرة في أول ليلة له. هيا، سأريك مكاناً يمكنك المبيت فيه الليلة.’’

سارا معاً عبر شوارع وسط البلد المزدحمة، بيومي يحمل حقيبته وعيناه تلتهمان تفاصيل المدينة الصاخبة، وسلمى تتحدث بحماس عن المعهد وأساتذته وطلابه.

"أتعلم، عندما رأيت صورك في الإسكندرية، عرفت أنك تملك عيناً استثنائية. لديك القدرة على رؤية ما لا يراه الآخرون."

"وأنتِ؟ كيف حال مشروع تخرجك؟" سألها بيومي.

تنهدت سلمى. "أواجه صعوبات. أريد تصوير فيلم عن المدينة المنسية، عن الأماكن والوجوه التي لا يلتفت إليها أحد. لكن المعهد يريد شيئاً أكثر... تقليدية."

"المدينة المنسية..." ردد بيومي الكلمات وكأنها سحرته. "فكرة رائعة."

توقفت سلمى أمام بناية قديمة في شارع عماد الدين. "وصلنا. هذه بناية يسكنها بعض طلاب المعهد. يمكنك البقاء في شقة صديقي كريم حتى تجد سكناً دائماً."

صعدا الدرج المتآكل إلى الطابق الثالث. فتح لهما الباب شاب نحيل بشعر مجعد وابتسامة ودودة.

"كريم، هذا بيومي، المصور الذي حدثتك عنه."

"أهلاً بك في القاهرة، مدينة الأحلام والكوابيس معاً!" قال كريم وهو يصافح بيومي بحرارة. "أي صديق لسلمى هو صديق لي."

دخلوا إلى شقة صغيرة مليئة بالكتب وأشرطة الأفلام والملصقات السينمائية. في الزاوية، كانت هناك طاولة مونتاج قديمة وكاميرا فيلمية من طراز بولكس.

"هذا بيتنا المؤقت، نحن عائلة السينما الصغيرة،" قال كريم وهو يشير إلى الغرفة. "يمكنك النوم على الأريكة حتى تستقر."

جلسوا حول طاولة صغيرة، يشربون الشاي ويتحدثون عن السينما والأحلام. كان بيومي يشعر للمرة الأولى أنه وجد أناساً يفهمون لغته، يرون العالم بنفس عينيه.

‘‘غداً ستقابل الدكتورة حنان شوقي،’’ قالت سلمى. ‘‘هي رئيسة قسم الإخراج وأكثر شخص مؤثر في المعهد. عليك أن تكون مستعداً.’’

‘‘ماذا يجب أن أقول لها؟’’

‘‘لا تقل شيئاً،’’ تدخل كريم. ‘‘دعها ترى عملك. الدكتورة حنان لا تهتم بالكلام، بل بالصور التي تتحدث عن نفسها.’’

في تلك الليلة، بينما كان بيومي مستلقياً على الأريكة، والقاهرة تنبض بالحياة خارج النافذة، شعر بأن حياته قد بدأت فصلاً جديداً. كانت الإسكندرية تعيش في ذاكرته كحلم جميل، لكن القاهرة كانت تنتظره كمغامرة لم تبدأ بعد.

وفي الغرفة المجاورة، كانت سلمى تكتب في دفترها: ‘‘اليوم، التقيت به مجدداً. الفتى الذي يحمل البحر في عينيه. أشعر أنه سيغير كل شيء.’’

****

المقابلة

في صباح اليوم التالي، وقف بيومي أمام بوابة معهد السينما، قلبه يخفق بشدة. كان المبنى الأبيض العتيق يبدو كمعبد قديم للفن السابع، نوافذه العالية تعكس ضوء الشمس كشاشات سينما صغيرة.

‘‘تذكر، كن نفسك فقط،’’ همست سلمى وهي تضغط على كتفه برفق قبل أن تتركه وتدخل إلى المبنى.

في قاعة الانتظار، جلس بيومي بين عشرات المتقدمين، كل منهم يحمل حلماً مشابهاً. بعضهم كان يراجع ملاحظاته بتوتر، وآخرون يتبادلون الأحاديث الهامسة. شعر بيومي بالغربة للحظة، ثم تذكر كلمات والده: ‘‘الغريب ليس من لا يعرف المكان، بل من لا يعرف نفسه.’’

‘‘بيومي عبد الحميد،’’ نادى صوت من مكبر الصوت.

دخل بيومي إلى غرفة واسعة، تحيط بها رفوف الكتب من كل جانب. خلف مكتب خشبي كبير، جلست امرأة في الخمسينات من عمرها، شعرها الأسود المخطط بخيوط فضية مربوط بإهمال مدروس، ونظارتها الطبية معلقة على طرف أنفها.

‘‘الدكتورة حنان شوقي،’’ عرفت نفسها بصوت هادئ يحمل سلطة طبيعية. ‘‘أرني ما لديك.’’

فتح بيومي حقيبته وأخرج ألبوم صوره. كانت مجموعة من اللقطات للإسكندرية، ليس الإسكندرية السياحية المعروفة، بل الإسكندرية الخفية: صياد عجوز يصلح شباكه في الفجر، طفلة تلعب مع ظلها على جدار متآكل، امرأة مسنة تنظر من نافذة شقتها إلى البحر البعيد.

تصفحت الدكتورة حنان الألبوم بصمت، وجهها لا يكشف عن أي انطباع. ثم رفعت عينيها ونظرت إلى بيومي مباشرة.

‘‘لماذا السينما؟’’ سألته. ‘‘أنت مصور فوتوغرافي جيد. لماذا تريد الانتقال إلى الصورة المتحركة؟’’

تردد بيومي للحظة، ثم أجاب: ‘‘لأن الصورة الثابتة تخبرنا بما حدث، أما السينما فتخبرنا بما يمكن أن يحدث. الصورة تجمد اللحظة، والسينما تطلقها حرة.’’

ارتفع حاجب الدكتورة حنان قليلاً. ‘‘هل تعتقد أن السينما حرية؟’’

‘‘أعتقد أنها أقرب شيء اخترعه الإنسان للحلم وهو مستيقظ.’’

صمتت الدكتورة للحظات، ثم سألته: ‘‘هل سمعت عن أندريه تاركوفسكي؟’’

‘‘المخرج الروسي، نعم. قرأت عنه وشاهدت فيلمه ‘ستالكر’.’’

‘‘وماذا فهمت منه؟’’

فكر بيومي قليلاً قبل أن يجيب: ‘‘فهمت أن السينما ليست مجرد وسيلة للترفيه أو حتى للتعبير. إنها طريقة لاستكشاف الوجود نفسه. تاركوفسكي يستخدم الكاميرا كأداة فلسفية.’’

للمرة الأولى، ظهرت ابتسامة خفيفة على وجه الدكتورة حنان. ‘‘حسناً، بيومي. لديك عين جيدة وفكر واعد. لكن هذا لا يكفي. السينما تحتاج إلى انضباط وصبر وتفانٍ. هل أنت مستعد لذلك؟’’

‘‘نعم، بالتأكيد.’’

‘‘سنرى.’’ أغلقت الدكتورة حنان ألبوم الصور وأعادته إليه. ‘‘ستعرف النتيجة خلال أسبوع.’’

خرج بيومي من الغرفة وهو يشعر بمزيج من الأمل والقلق. في الممر، وجد سلمى تنتظره.

‘‘كيف كانت المقابلة؟’’ سألته بلهفة.

‘‘لا أعرف. الدكتورة حنان شخصية غامضة.’’

ضحكت سلمى. ‘‘هذا هو سحرها. لا أحد يعرف ما يدور في رأسها. لكنها عادلة جداً. إذا رأت فيك موهبة حقيقية، فستدعمك حتى النهاية.’’

‘‘وإذا لم تر؟’’

‘‘حينها ستكون قاسية بنفس القدر.’’ ابتسمت سلمى وهي تأخذ ذراعه. ‘‘هيا، لنحتفل بانتهاء المقابلة على أي حال. أعرف مقهى رائعاً يجتمع فيه السينمائيون.’’

في مقهى ‘‘ريش’’ التاريخي، جلس بيومي وسلمى مع مجموعة من طلاب المعهد. كان هناك كريم، ومعه فتاة تدعى ياسمين تدرس السيناريو، وشاب يدعى فادي متخصص في التصوير السينمائي.

‘‘أتعرف،’’ قال فادي وهو يشعل سيجارة، ‘‘المعهد ليس مجرد مكان للدراسة. إنه اختبار للشخصية. إما أن تخرج منه فناناً حقيقياً، أو تخرج محطماً.’’

‘‘لا تخيفه يا فادي،’’ تدخلت ياسمين. ‘‘بيومي سينجح. أرى ذلك في عينيه.’’

‘‘المهم أن تجد صوتك الخاص،’’ قالت سلمى وهي تنظر إلى بيومي. ‘‘الكثيرون يدخلون المعهد وهم يحلمون بأن يصبحوا نسخة من مخرج آخر. لكن الحقيقة هي أن العالم لا يحتاج إلى نسخة ثانية من فيليني أو كوبولا. يحتاج إلى النسخة الأولى منك.’’

تأمل بيومي وجوه الجالسين حوله، وشعر بأنه وجد عائلته الروحية. هؤلاء الشباب الذين يتحدثون بشغف عن الفن والحياة، كانوا يشبهونه أكثر من أي شخص قابله في حياته.

‘‘وماذا عن مشروع تخرجك؟’’ سأل بيومي سلمى. ‘‘هل ستستمرين في فكرة ‘المدينة المنسية’؟’’

تنهدت سلمى. ‘‘أحاول. لكن الدكتور بسطاويسي يعتقد أنها فكرة غير تجارية. يريدني أن أصنع شيئاً أكثر... تقليدية.’’

‘‘ومن هو الدكتور بسطاويسي هذا؟’’

‘‘رئيس قسم الإنتاج،’’ أجاب كريم. ‘‘رجل عملي جداً. يؤمن بأن السينما يجب أن تكون صناعة قبل أن تكون فناً.’’

‘‘وماذا ستفعلين؟’’ سأل بيومي.

نظرت سلمى إليه بعينين مصممتين. ‘‘سأقاتل من أجل فيلمي. هذا ليس مجرد مشروع تخرج بالنسبة لي. إنه... حلم حياتي.’’

في تلك اللحظة، شعر بيومي بشيء يتحرك في قلبه. كان إعجاباً، احتراماً، وشيئاً آخر لم يستطع تسميته بعد. لكنه عرف أنه يريد أن يكون جزءاً من حلم سلمى، بأي طريقة ممكنة.

"ربما أستطيع مساعدتك،" قال بهدوء. "إذا قُبلت في المعهد."

ابتسمت سلمى ابتسامة عريضة. "ستُقبل. أنا متأكدة من ذلك."

وبينما كانت أضواء القاهرة تتلألأ خارج نوافذ المقهى، وأصوات الموسيقى والضحكات تملأ المكان، شعر بيومي بأن مستقبله قد بدأ يتشكل أمام عينيه، مثل فيلم يُعرض للمرة الأولى.

****

القبول والبدايات

مر أسبوع كان فيه بيومي يتنقل بين شوارع القاهرة، يلتقط صوراً للمدينة الصاخبة، ويتعرف على أزقتها وحاراتها. كان يعود كل مساء إلى شقة كريم، حيث يجلسون معاً يشاهدون أفلاماً كلاسيكية ويتناقشون حولها حتى ساعات الفجر الأولى.

في صباح اليوم السابع، رن هاتف بيومي. كان رقماً غير معروف.

"ألو؟" أجاب بصوت نعسان.

"السيد بيومي عبد الحميد؟" جاءه صوت رسمي.

"نعم، أنا بيومي."

"أتصل من معهد السينما. تهانينا، لقد تم قبولك في قسم التصوير السينمائي. الدراسة تبدأ الأسبوع القادم."

للحظة، لم يستطع بيومي التنفس. ثم صرخ بفرح: "شكراً! شكراً جزيلاً!"

أغلق الهاتف وهو يكاد يطير من السعادة. هرع إلى غرفة كريم وطرق الباب بحماس.

‘‘كريم! كريم! تم قبولي!’’

فتح كريم الباب وهو يفرك عينيه. ‘‘ماذا؟ ما الوقت الآن؟’’

‘‘تم قبولي في المعهد! سأدرس السينما!’’

ابتسم كريم ابتسامة عريضة وعانق صديقه. ‘‘مبروك يا صديقي! كنت متأكداً من ذلك!’’

في المساء، اجتمعوا في شقة ياسمين للاحتفال. كانت سلمى هناك، ترتدي فستاناً أزرق بسيطاً وتحمل كاميرا فيلمية صغيرة.

‘‘كنت أعلم أنك ستنجح،’’ قالت وهي تعانق بيومي بفرح. ‘‘الآن، سنعمل معاً.’’

‘‘على ماذا؟’’ سألها بيومي.

‘‘على كل شيء!’’ ضحكت سلمى. ‘‘على أفلامنا، على أحلامنا، على تغيير العالم بالصورة!’’

كان هناك شيء معدٍ في حماس سلمى، شيء جعل بيومي يشعر بأن كل شيء ممكن. في تلك اللحظة، وعد نفسه بأن يكون جديراً بهذه الفرصة، جديراً بهذه الصداقة، جديراً بهذا الحلم المشترك.

بدأت الدراسة في المعهد، وانغمس بيومي في عالم جديد من المعرفة والإبداع. كانت محاضرات الدكتورة حنان شوقي هي المفضلة لديه. كانت تتحدث عن السينما ليس كمجرد فن، بل كفلسفة حياة.

‘‘السينما ليست ما نراه على الشاشة،’’ قالت في إحدى محاضراتها، ‘‘بل ما نشعر به بعد أن تنطفئ الأنوار. إنها ليست الصورة، بل ما تتركه الصورة في أرواحنا.’’

كان بيومي يدون كل كلمة تقولها، يستوعبها، يتأملها. وفي المساء، كان يناقشها مع سلمى التي كانت تلميذة مفضلة للدكتورة حنان.

‘‘أتعرف،’’ قالت سلمى ذات مرة وهما جالسان على ضفاف النيل، ‘‘الدكتورة حنان كانت مخرجة واعدة جداً في شبابها. صنعت فيلماً واحداً فقط، ‘أصوات الصمت’، ثم توقفت.’’

‘‘لماذا؟’’ سأل بيومي بفضول.

‘‘لا أحد يعرف بالضبط. البعض يقول إنها واجهت رقابة شديدة، وآخرون يقولون إنها فقدت الإيمان بالسينما المصرية. لكنها تحولت إلى التدريس، وأصبحت تصنع سينمائيين بدلاً من أفلام.’’

تأمل بيومي وجه سلمى في ضوء القمر المنعكس على النيل. كانت جميلة بطريقة غير تقليدية، عيناها الواسعتان تحملان نظرة عميقة كأنها ترى ما وراء الأشياء.

‘‘وأنتِ؟’’ سألها. ‘‘ما الذي تريدين قوله من خلال السينما؟’’

فكرت سلمى للحظة، ثم أجابت: ‘‘أريد أن أعطي صوتاً لمن لا صوت لهم. أريد أن أجعل المنسيين مرئيين. هذا ما أحاول فعله في مشروع تخرجي ‘المدينة المنسية’.’’

‘‘أخبريني المزيد عن هذا المشروع.’’

تنهدت سلمى. ‘‘إنه فيلم وثائقي عن الأماكن والأشخاص الذين تتجاهلهم الكاميرات عادة. الأحياء الفقيرة، العمال، الباعة المتجولون، المسنون المنسيون... أريد أن أظهر جمالهم وكرامتهم وقصصهم.’’

‘‘يبدو مشروعاً رائعاً.’’

‘‘نعم، لكن الدكتور بسطاويسي يراه ‘غير تجاري’ و’مثالياً أكثر من اللازم’. يريدني أن أصنع شيئاً أكثر... استهلاكية.’’

‘‘وماذا ستفعلين؟’’

نظرت سلمى إلى النيل بعينين مصممتين. ‘‘سأقاتل من أجله. هذا ليس مجرد فيلم بالنسبة لي، بيومي. إنه... رسالتي.’’

في تلك اللحظة، شعر بيومي بشيء يتحرك في قلبه. كان إعجاباً، احتراماً، وشيئاً آخر بدأ يتبلور ببطء.

"سأساعدك،" قال بهدوء. "يمكنني أن أكون مصور فيلمك."

التفتت سلمى إليه، عيناها تلمعان بالدموع والأمل معاً. "حقاً؟ ستفعل ذلك؟"

"بالطبع. نحن... فريق، أليس كذلك؟"

ابتسمت سلمى ابتسامة عريضة، ثم فعلت شيئاً مفاجئاً: قبّلت خده برفق. "شكراً لك، بيومي. أنت... مختلف."

عاد بيومي إلى سكنه تلك الليلة وقلبه يخفق بشدة. كان يشعر بأن حياته تتحرك في اتجاه جديد، وأن سلمى الشاهد هي البوصلة التي تقوده.

****

قناة دريم ونادين الشاذلي

كانت نادين الشاذلي واحدة من أبرز الإعلاميات في مصر، عُرفت بتقديمها لبرامج وثائقية متميزة تسلط الضوء على المواهب الشابة والقضايا الثقافية. لم تكن مجرد مقدمة برامج، بل كانت منتجة ومخرجة طموحة، تبحث دائماً عن المواهب الجديدة لتقديمها للجمهور.

عندما التقت بيومي للمرة الأولى، رأت في عينيه وفي صوره شيئاً مختلفاً، رؤية فنية فريدة تستحق الدعم والتشجيع. قررت أن تكون راعية لموهبته، ليس فقط كمصور، بل كمخرج واعد يمكنه تقديم أعمال سينمائية مهمة.

مع مرور الأشهر الأولى في المعهد، بدأ بيومي يواجه تحدياً جديداً: المال. كانت تكاليف المعيشة في القاهرة أعلى مما توقع، وكان عليه أن يجد عملاً لدعم نفسه.

"لماذا لا تتقدم للعمل في قناة دريم؟" اقترح فادي ذات يوم. "إنهم يبحثون عن مصورين متدربين. الراتب ليس كبيراً، لكنه سيساعدك."

في اليوم التالي، ذهب بيومي إلى مقر القناة في مدينة الإنتاج الإعلامي. كان المبنى الزجاجي الضخم مختلفاً تماماً عن معهد السينما العتيق. هنا، كان كل شيء حديثاً، سريعاً، عملياً.

بعد مقابلة قصيرة ومشاهدة بعض أعماله الفوتوغرافية، تم قبول بيومي كمصور متدرب في برنامج "القاهرة اليوم" الذي تقدمه الإعلامية الشهيرة نادين الشاذلي.

في يومه الأول، وقف بيومي متوتراً في استوديو البرنامج. كانت الأضواء ساطعة، والكاميرات ضخمة، والجميع يتحركون بسرعة وكفاءة.

"أنت الجديد، أليس كذلك؟" سمع صوتاً أنثوياً واثقاً خلفه.

التفت ليجد نادين الشاذلي تقف أمامه. كانت في أوائل الثلاثينات، أنيقة بشكل لافت، شعرها الأسود القصير مصفف بعناية، وعيناها الخضراوان تشعان ذكاءً وطموحاً.

"نعم، أنا بيومي، المصور المتدرب الجديد."

"مرحباً بك في فريقنا، بيومي. أنا نادين." مدت يدها لمصافحته. "سمعت أنك طالب في معهد السينما؟"

"نعم، في السنة الأولى، قسم التصوير."

"رائع. نحن نحب المواهب الشابة هنا." ابتسمت ابتسامة مهنية. "اليوم سنصور تقريراً عن المتحف المصري. أريد لقطات مختلفة، إبداعية. هل يمكنك ذلك؟"

"بالتأكيد."

"جيد. أحب الثقة." نظرت إلى ساعتها. "لدينا ساعتان قبل البث. هيا بنا."

في المتحف، أدهش بيومي الجميع بلقطاته المميزة. كان يرى زوايا لم يلاحظها أحد، يلتقط تفاصيل صغيرة تحكي قصصاً كبيرة.

"أنت موهوب حقاً،" قالت نادين وهي تشاهد اللقطات على شاشة صغيرة. "لديك عين مختلفة."

‘‘شكراً لك.’’

‘‘من أين أنت أصلاً؟’’

‘‘من الإسكندرية.’’

‘‘آه، مدينة الأحلام والذكريات.’’ ابتسمت نادين. ‘‘أحب الإسكندرية. هناك شيء سحري فيها، أليس كذلك؟’’

‘‘نعم، إنها... خاصة.’’

‘‘مثلك تماماً.’’ نظرت إليه بطريقة جعلته يشعر بالارتباك. ‘‘أعتقد أننا سنعمل معاً بشكل جيد، بيومي.’’

في الأسابيع التالية، أصبح بيومي جزءاً أساسياً من فريق ‘‘القاهرة اليوم’’. كانت نادين معجبة بعمله، وكثيراً ما كانت تطلبه بالاسم لتصوير تقاريرها الخاصة.

‘‘أنت محظوظ،’’ قال له أحد المصورين القدامى. ‘‘نادين لا تثق بسهولة في أحد. لكنها تبدو معجبة بك.’’

لم يكن بيومي متأكداً مما يشعر به تجاه نادين. كانت امرأة مثيرة للإعجاب: ذكية، طموحة، ناجحة. لكنها كانت تنتمي إلى عالم مختلف تماماً عن عالمه وعالم سلمى. عالم الأضواء والشهرة والنجاح التجاري.

ذات مساء، بعد تصوير حلقة خاصة عن الفن المعاصر، دعته نادين لتناول العشاء.

‘‘لدي اقتراح لك،’’ قالت وهي ترشف كأس النبيذ. ‘‘أريد أن أصنع فيلماً وثائقياً عن الفنانين الشباب في مصر. وأريدك أن تكون المصور الرئيسي.’’

‘‘حقاً؟’’ تفاجأ بيومي. ‘‘لكنني ما زلت طالباً.’’

‘‘وهذا بالضبط ما أريده. نظرة جديدة، غير تقليدية. أنت تفهم الفن، بيومي. أرى ذلك في طريقة تصويرك.’’

‘‘شكراً لك، هذا... شرف كبير.’’

‘‘إذن، هل أنت موافق؟’’

فكر بيومي للحظة. كانت فرصة رائعة، لكنه تذكر وعده لسلمى بالعمل على مشروع تخرجها.

‘‘أحتاج بعض الوقت للتفكير. لدي التزامات أخرى في المعهد.’’

‘‘بالطبع، خذ وقتك.’’ ابتسمت نادين. ‘‘لكن لا تأخذ وقتاً طويلاً. الفرص الجيدة لا تنتظر.’’

في طريق العودة إلى سكنه، كان عقل بيومي يعج بالأفكار المتضاربة. من ناحية، كان عرض نادين فرصة مهنية رائعة. من ناحية أخرى، كان هناك مشروع سلمى، الذي آمن به حقاً.

عندما وصل إلى البيت، وجد رسالة من سلمى: ‘‘هل يمكننا اللقاء غداً؟ لدي أخبار مهمة عن المشروع.’’

في تلك اللحظة، عرف بيومي أن قلبه قد اتخذ قراره قبل عقله. ٥. مشروع سلمى والدكتور كمال

التقى بيومي بسلمى في اليوم التالي في حديقة الأزهر. كانت تجلس على مقعد خشبي، ترتدي قميصاً أبيض وبنطالاً جينز، وتحمل ملفاً سميكاً.

‘‘مرحباً!’’ حيّته بحماس. ‘‘لن تصدق ما حدث!’’

جلس بيومي بجانبها، مبتسماً لحماسها المعدي. ‘‘أخبريني.’’

‘‘الدكتورة حنان وافقت على دعم مشروعي! ستكون المشرفة الرسمية على ‘المدينة المنسية’!’’

‘‘هذا رائع!’’ صاح بيومي بفرح. ‘‘كيف حدث ذلك؟’’

‘‘عرضت عليها المواد الأولية التي صورتها، وبعض أفكاري للسيناريو. في البداية، كانت متحفظة، لكن عندما أخبرتها أنك ستكون المصور الرئيسي، تغير موقفها.’’

‘‘أنا؟ لماذا؟’’

ابتسمت سلمى. ‘‘قالت إنها رأت في صورك شيئاً مختلفاً. قالت إن لديك ‘عيناً شاعرية’.’’

شعر بيومي بالفخر والارتباك معاً. ‘‘هذا... شرف كبير.’’

‘‘المشكلة الوحيدة هي الدكتور بسطاويسي. ما زال يعارض الفكرة، ويقول إنها لن تجد تمويلاً.’’

‘‘وماذا قالت الدكتورة حنان عن ذلك؟’’

ضحكت سلمى. ‘‘قالت: ‘دعي بسطاويسي لي. سأتعامل معه’.’’

فتحت سلمى الملف وأخرجت منه مجموعة من الصور والملاحظات. ‘‘هذه خطتي للفيلم. سنصور في ثلاثة أماكن رئيسية: حي بولاق في القاهرة، وسوق العطارين في الإسكندرية، وقرية صغيرة في دلتا النيل.’’

كانت هذه إحدى زيارات سلمى المتكررة للإسكندرية. رغم إقامتها في القاهرة، كانت تحرص على العودة إلى مسقط رأسها كلما سنحت لها الفرصة، لتتنفس هواء البحر وتستعيد ذكريات طفولتها.

تصفح بيومي المواد بإعجاب. كانت سلمى قد وضعت خطة تفصيلية لكل مشهد، مع ملاحظات عن الإضاءة والزوايا والحركة.

‘‘هذا عمل رائع، سلمى. أنتِ... مذهلة.’’

احمرت وجنتاها قليلاً. ‘‘شكراً لك. لكنني لا أستطيع فعل ذلك وحدي. أحتاج إليك، بيومي.’’

نظر بيومي إليها، متردداً للحظة. ثم قال: ‘‘هناك شيء يجب أن أخبرك به. نادين الشاذلي عرضت علي العمل كمصور رئيسي في فيلم وثائقي تنتجه عن الفنانين الشباب.’’

تغير وجه سلمى قليلاً. ‘‘أوه. هذه... فرصة جيدة.’’

‘‘نعم، لكنني لم أوافق بعد.’’

‘‘لماذا؟ إنها فرصة رائعة، بيومي. نادين الشاذلي شخصية مؤثرة في الإعلام.’’

‘‘لأنني وعدتك بالعمل على مشروعك. ولأنني... أؤمن بفيلمك أكثر.’’

نظرت سلمى إليه بعينين تلمعان بالدموع. ‘‘حقاً؟ ستختار مشروعي على عرض نادين الشاذلي؟’’

‘‘نعم. ‘المدينة المنسية’ ليست مجرد فيلم، سلمى. إنها... رسالة. وأنا أريد أن أكون جزءاً منها.’’

في تلك اللحظة، فعلت سلمى شيئاً مفاجئاً: احتضنت بيومي بقوة. ‘‘شكراً لك. أنت... أنت شخص استثنائي، بيومي.’’

شعر بيومي بقلبها يخفق بقوة ضد صدره، وأدرك أن مشاعره تجاه سلمى قد تجاوزت حدود الصداقة والإعجاب المهني. كان هناك شيء أعمق، أكثر تعقيداً، أكثر جمالاً.

في الأسابيع التالية، انغمس بيومي وسلمى في العمل على ‘‘المدينة المنسية’’. كانا يقضيان ساعات طويلة معاً، يخططان، يناقشان، يستكشفان أماكن التصوير. وفي كل يوم، كانت العلاقة بينهما تنمو وتتعمق.

في إحدى الأمسيات، بينما كانا يعملان في مختبر التصوير بالمعهد، دخل عليهما رجل في الستينات من عمره، نحيل البنية، بشعر أبيض كثيف وعينين زرقاوين حادتين.

‘‘الدكتور كمال!’’ صاحت سلمى بسعادة. ‘‘لم أكن أعلم أنك عدت من باريس.’’

‘‘وصلت البارحة،’’ أجاب الرجل بصوت عميق. ‘‘حنان أخبرتني عن مشروعك الجديد، وكنت متشوقاً لرؤيته.’’

‘‘بيومي، هذا الدكتور كمال سليم، أستاذ التصوير الفوتوغرافي وأحد أهم المصورين في تاريخ السينما المصرية. الدكتور كمال، هذا بيومي عبد الحميد، المصور الموهوب الذي حدثتك عنه.’’

صافح الدكتور كمال بيومي بحرارة. ‘‘سمعت الكثير عنك من حنان وسلمى. يقولون إن لديك عيناً استثنائية.’’

‘‘شكراً لك، يا دكتور. هذا شرف كبير.’’

تفحص الدكتور كمال الصور المعلقة على الحائط، صور اختبارية للمشروع. توقف عند صورة التقطها بيومي لرجل عجوز يجلس وحيداً على مقعد في حديقة الأزهر، الضوء يتسلل من بين أوراق الشجر ليرسم ظلالاً على وجهه المتجعد.

‘‘هذه صورة استثنائية،’’ قال الدكتور كمال. ‘‘هناك حزن عميق فيها، لكن أيضاً كرامة وقوة. من التقطها؟’’

‘‘بيومي،’’ أجابت سلمى بفخر.

نظر الدكتور كمال إلى بيومي بإعجاب. ‘‘أنت لا تلتقط صوراً فقط، يا بيومي. أنت تلتقط أرواحاً.’’

‘‘شكراً لك، يا دكتور.’’

‘‘هل سبق لك أن فكرت في إقامة معرض فوتوغرافي؟’’

تفاجأ بيومي بالسؤال. ‘‘معرض؟ لا، لم أفكر في ذلك. أنا ما زلت طالباً.’’

‘‘وكان أنسل آدامز طالباً عندما التقط أولى صوره الشهيرة. الموهبة لا تنتظر الشهادات، يا بيومي.’’

تدخلت سلمى بحماس: ‘‘فكرة رائعة! بيومي لديه مئات الصور المذهلة للإسكندرية والقاهرة.’’

فكر الدكتور كمال للحظة، ثم قال: "لدي اقتراح. أنا أدير معرضاً صغيراً في الإسكندرية، على كورنيش البحر. ما رأيك أن نقيم هناك معرضك الأول بعد انتهائك من تصوير فيلم سلمى؟"

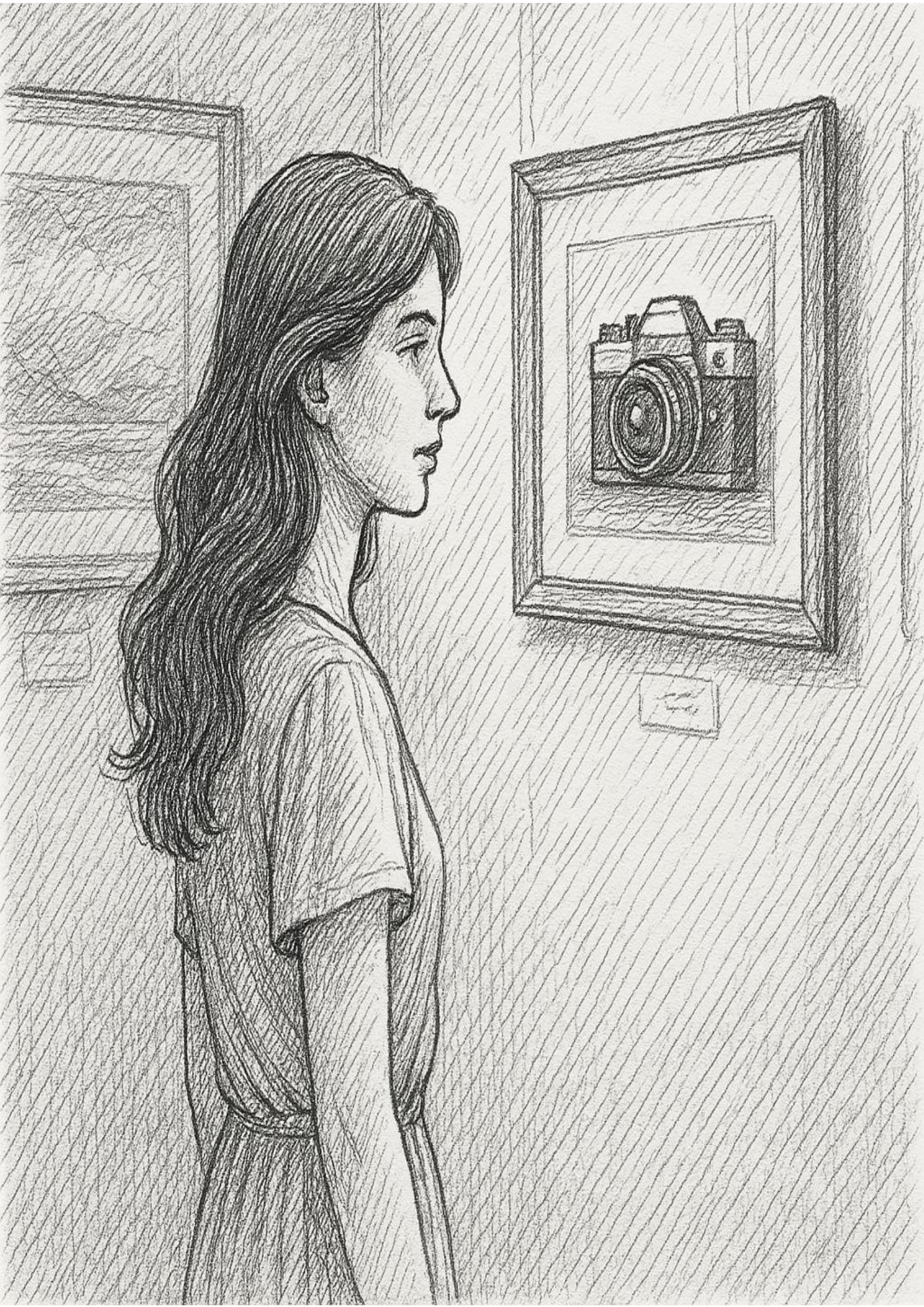

شعر بيومي بالدهشة والإثارة معاً. ‘‘هذا... هذا عرض رائع، يا دكتور. لا أعرف كيف أشكرك.’’

‘‘لا تشكرني. فقط استمر في التقاط صور تحرك القلوب. هذا هو الفن الحقيقي.’’

بعد مغادرة الدكتور كمال، نظر بيومي إلى سلمى بعينين متسعتين. ‘‘هل ما حدث للتو حقيقي؟ هل الدكتور كمال سليم، أسطورة التصوير، عرض علي إقامة معرض في صالته؟’’

ضحكت سلمى وهي تقفز من السعادة. ‘‘نعم! نعم! ألم أقل لك إنك موهوب استثنائي؟’’

في تلك اللحظة، شعر بيومي بأن حياته تتحرك في اتجاه لم يكن يتخيله. من فتى يحمل كاميرا قديمة في شوارع الإسكندرية، إلى مصور محترف يعمل على فيلم مهم ويستعد لمعرضه الأول.

وكل ذلك بفضل فتاة واحدة، فتاة غيرت مساره بجملة واحدة على شاطئ الأنفوشي: ‘‘أنت لا تنتمي إلى هنا فقط، عينك تستحق أن ترى العالم من خلال عدسة أكبر.’’

****

مع تقدم العمل على مشروع ‘‘المدينة المنسية’’، أصبحت العلاقة بين بيومي وسلمى أعمق وأكثر تعقيداً. كانا يقضيان معظم وقتهما معاً، يتناقشان ليس فقط حول الفيلم، بل حول الحياة والفن والفلسفة.

في إحدى الأمسيات، بعد يوم طويل من التصوير في حي بولاق، جلسا في مقهى صغير قديم، يشربان الشاي ويشاهدان الناس يمرون.

‘‘أتعرف ما الذي أحبه في السينما؟’’ قالت سلمى فجأة. ‘‘أنها تجعل الزمن ملموساً. في الحياة العادية، الزمن يمر دون أن نشعر به. لكن في الفيلم، كل ثانية محسوبة، كل لحظة لها معنى.’’

تأمل بيومي وجهها المضاء بضوء الشمس الغاربة. ‘‘وهذا ما يجعل السينما أقرب إلى الحلم من الواقع. في الأحلام أيضاً، الزمن له قواعد مختلفة.’’

‘‘بالضبط! تاركوفسكي كان يقول إن السينما هي ‘الزمن المنحوت’. نحن لا نصنع قصصاً فقط، بل نصنع تجارب زمنية.’’

‘‘لكن ألا تعتقدين أن هناك خطراً في ذلك؟’’ سأل بيومي. ‘‘أحياناً أشعر أننا، كصانعي أفلام، نعيش أكثر في الصور مما نعيش في الواقع.’’

فكرت سلمى للحظة. ‘‘ربما. لكن ألا يمكن للصورة أن تكون أكثر حقيقة من الواقع نفسه؟ أحياناً، نرى في الفيلم ما لا نستطيع رؤيته في الحياة اليومية، لأننا مشغولون جداً بتفاصيل صغيرة.’’

‘‘مثل ماذا؟’’

‘‘مثل... الجمال في الأماكن العادية. مثل الكرامة في وجوه الناس البسطاء. مثل القصص الصغيرة التي تحدث كل يوم حولنا ولا نلاحظها.’’

نظر بيومي إلى الشارع المزدحم أمامهما. ‘‘هذا ما نحاول فعله في ‘المدينة المنسية’، أليس كذلك؟ جعل غير المرئي مرئياً.’’

‘‘بالضبط.’’ ابتسمت سلمى. ‘‘وهذا ما يجعل عملنا مهماً، بيومي. نحن لا نصنع ترفيهاً فقط، بل نصنع وعياً جديداً.’’

في تلك اللحظة، شعر بيومي بأن فهمه للسينما قد تعمق. لم تعد مجرد هواية أو حتى مهنة، بل أصبحت طريقة لرؤية العالم، لفهمه، لتغييره.

في اليوم التالي، كان لديهما محاضرة مع الدكتورة حنان شوقي حول ‘‘فلسفة الصورة’’. كانت قاعة المحاضرات مكتظة، فمحاضرات الدكتورة حنان كانت الأكثر شعبية في المعهد.

‘‘الصورة ليست مجرد انعكاس للواقع،’’ بدأت الدكتورة حنان محاضرتها. ‘‘بل هي تفسير له. عندما نوجه الكاميرا نحو شيء ما، نحن لا نلتقطه فقط، بل نختاره، نؤطره، نعزله عن محيطه، نمنحه معنى جديداً.’’

جلس بيومي في الصف الأمامي، يدون كل كلمة. بجانبه، كانت سلمى تستمع بتركيز شديد.

‘‘لذلك، فإن السؤال الأخلاقي الأول لكل صانع صور هو: ما الذي أختار أن أجعله مرئياً؟ وما الذي أختار أن أتركه خارج الإطار؟’’

رفعت سلمى يدها. ‘‘لكن يا دكتورة، ألا يمكن أن يكون ما نتركه خارج الإطار مهماً بنفس قدر ما نضعه داخله؟’’

ابتسمت الدكتورة حنان. ‘‘بالضبط يا سلمى. الغياب يمكن أن يكون حضوراً بطريقة ما. ما لا نراه يشكل فهمنا لما نراه.’’

‘‘مثل الظل والضوء،’’ تدخل بيومي. ‘‘لا يمكن أن يكون هناك ضوء دون ظل.’’

‘‘استعارة جميلة، يا بيومي.’’ أومأت الدكتورة حنان برأسها. ‘‘وهذا يقودنا إلى فكرة أخرى: الصورة ليست فقط ما نراه، بل أيضاً ما نشعر به عندما نراها. الإضاءة، الزاوية، الحركة، كلها تخلق استجابة عاطفية.’’

بعد المحاضرة، اقتربت الدكتورة حنان من بيومي وسلمى. ‘‘كيف يسير مشروعكما؟’’

‘‘بشكل جيد،’’ أجابت سلمى. ‘‘أنهينا تصوير الجزء الأول في بولاق، وسننتقل إلى الإسكندرية الأسبوع القادم.’’

‘‘وماذا عن بسطاويسي؟ هل ما زال يعارض؟’’

تنهدت سلمى. ‘‘نعم، للأسف. يقول إن الفيلم لن يجد جمهوراً.’’

فكرت الدكتورة حنان للحظة، ثم قالت: ‘‘دعيني أتحدث معه مرة أخرى. بسطاويسي رجل عملي، لكنه يحترم الفن الحقيقي. سأريه بعض اللقطات التي صورها بيومي.’’

‘‘حقاً؟ ستفعلين ذلك؟’’ سألت سلمى بأمل.

‘‘بالطبع. أنا أؤمن بمشروعكما. ‘المدينة المنسية’ ليست مجرد فيلم طلابي، بل هي بيان فني مهم.’’

شعر بيومي بالفخر والمسؤولية معاً. كان إيمان الدكتورة حنان بهم يعني الكثير، لكنه أيضاً وضع على عاتقهم مسؤولية كبيرة.

‘‘شكراً لك، يا دكتورة،’’ قال بيومي. ‘‘سنبذل قصارى جهدنا لنكون على قدر ثقتك.’’

ابتسمت الدكتورة حنان ابتسامة حكيمة. ‘‘أعلم ذلك. أنتما... مختلفان. أرى في عملكما شيئاً نادراً هذه الأيام: الصدق.’’

في طريق العودة، كان بيومي وسلمى صامتين، كل منهما غارق في أفكاره. ثم قالت سلمى فجأة: ‘‘هل تعتقد أننا سننجح؟ هل سنصنع فيلماً يستحق كل هذا الإيمان؟’’

نظر بيومي إليها، ورأى في عينيها مزيجاً من الشك والأمل. ‘‘نعم، سننجح. ليس لأننا موهوبان فقط، بل لأننا نؤمن بما نفعله. وهذا هو الفرق بين الحرفي والفنان.’’

ابتسمت سلمى، ثم فعلت شيئاً مفاجئاً: أمسكت بيده وضغطت عليها برفق. ‘‘شكراً لك، بيومي. لا أعرف كيف كنت سأفعل ذلك بدونك.’’

شعر بيومي بدفء يدها في يده، وأدرك أن مشاعره تجاه سلمى قد تجاوزت حدود الصداقة والإعجاب المهني. كان هناك شيء أعمق، أكثر تعقيداً، أكثر جمالاً. كان يقع في الحب.

المعرض الأول

مرت الأشهر سريعاً، وتطورت العلاقة بين بيومي وسلمى بشكل طبيعي. كانا يعملان معاً على مشروع "المدينة المنسية" بحماس وشغف، يتنقلان بين القاهرة والإسكندرية لتصوير المشاهد المختلفة. وفي خضم العمل المشترك، نمت مشاعرهما وتعمقت، دون أن يصرح أي منهما بها بشكل مباشر.

انتهى تصوير الفيلم أخيراً، وحصلت سلمى على تقدير امتياز في مشروع تخرجها. كان الدكتور بسطاويسي، الذي عارض الفكرة في البداية، من أشد المعجبين بالنتيجة النهائية، خاصة بعد أن شاهد اللقطات التي صورها بيومي.

"لقد نجحتما في جعل المنسي مرئياً،" قال الدكتور بسطاويسي في حفل عرض المشاريع. "هذا هو جوهر الفن الحقيقي."

بعد انتهاء المشروع، تذكر الدكتور كمال وعده لبيومي بإقامة معرض فوتوغرافي في الإسكندرية. اتصل به ذات مساء وهو متحمس.

"بيومي، لقد حان الوقت. المعرض الذي وعدتك به، أريد أن نقيمه الشهر القادم. هل أنت مستعد؟"

شعر بيومي بمزيج من الإثارة والخوف. "معرضي الأول؟ هل تعتقد أنني جاهز لذلك، يا دكتور؟"

"أكثر من جاهز. لقد جمعت صورك من مشروع 'المدينة المنسية' وأعمالك السابقة. لديك مجموعة استثنائية تستحق أن يراها العالم."

في الأسابيع التالية، انغمس بيومي في التحضير للمعرض. كان يختار الصور بعناية، يفكر في ترتيبها، في الرسالة التي يريد إيصالها. كانت سلمى إلى جانبه في كل خطوة، تدعمه، تشجعه، تقدم له النصائح.

‘‘هذه ستكون بدايتك الحقيقية، بيومي،’’ قالت له ذات مساء وهما يعملان على اختيار الصور النهائية. ‘‘من هنا ستنطلق إلى العالمية.’’

ابتسم بيومي وهو ينظر إليها. ‘‘كل هذا بفضلك، سلمى. أنت من رأى في ما لم يره أحد.’’

‘‘لا، بيومي. الموهبة كانت دائماً فيك. أنا فقط ساعدتك على رؤيتها.’’

في اليوم السابق لسفره إلى الإسكندرية للإشراف على التجهيزات النهائية للمعرض، التقى بيومي وسلمى للعشاء في مطعم صغير في وسط القاهرة. كان المكان هادئاً، رومانسياً، مضاء بأضواء خافتة.

‘‘غداً تسافر،’’ قالت سلمى وهي تلعب بطعامها. ‘‘سأشتاق إليك.’’

‘‘سأعود بعد أسبوعين،’’ ابتسم بيومي. ‘‘وأتمنى أن تأتي لحضور الافتتاح.’’

‘‘بالطبع سآتي. لن أفوت هذه اللحظة المهمة في حياتك.’’

ساد صمت لطيف بينهما، ثم قال بيومي فجأة: ‘‘سلمى، هناك شيء أريد أن أقوله لك.’’

رفعت سلمى عينيها إليه، منتظرة.

‘‘أنا... أنا أحبك. أحبك منذ فترة طويلة، ربما منذ لقائنا الأول على شاطئ الأنفوشي. لكنني لم أجرؤ على قول ذلك.’’

احمرت وجنتا سلمى قليلاً، وابتسمت ابتسامة خجولة. ‘‘وأنا أيضاً أحبك، بيومي. ظننت أنك لن تقولها أبداً.’’

مد بيومي يده وأمسك بيدها. ‘‘أردت أن أكون جديراً بك أولاً. أن أحقق شيئاً، أن أثبت نفسي.’’

‘‘لم تكن بحاجة إلى إثبات أي شيء. أحببتك كما أنت، بكل أحلامك وطموحاتك.’’

في تلك الليلة، تعاهدا على البقاء معاً، على دعم بعضهما، على مواجهة الحياة والفن معاً. وفي صباح اليوم التالي، سافر بيومي إلى الإسكندرية، قلبه مليء بالحب والأمل والحماس لمعرضه الأول.

وصل إلى الإسكندرية في المساء، واستقر في فندق صغير على الكورنيش، يطل على البحر المتوسط. كان المعرض سيقام في صالة فنية صغيرة يديرها الدكتور كمال، على مقربة من مكتبة الإسكندرية.

وقف بيومي على شرفة غرفته، يتأمل البحر والسماء والمدينة التي ولد فيها. شعر بأنه أكمل دورة كاملة: من فتى يحمل كاميرا قديمة في شوارع الإسكندرية، إلى فنان يستعد لمعرضه الأول في المدينة نفسها.

غداً سيكون يومه الكبير، افتتاح معرضه الفوتوغرافي الأول. سنوات من العمل الدؤوب، من التقاط الصور في زوايا مصر المنسية، من محاولة رؤية ما لا يراه الآخرون، كلها ستتوج غداً. شعر بمزيج من الحماس والقلق يتصارعان في صدره. هل ستنال صوره إعجاب النقاد؟ هل سيفهم الجمهور ما يحاول قوله من خلالها؟ هل سيكون هذا المعرض بداية حقيقية لمسيرته الفنية، أم مجرد حلم عابر سرعان ما سيتبدد؟

الفصل الثالث: حلم وصورة

كانت الإسكندرية تتنفس نسيم البحر المتوسط في ذلك المساء الربيعي، والشمس تغرق ببطء في الأفق، تاركة خلفها سماءً ملونة بتدرجات من الذهبي والبرتقالي والأرجواني. كانت أمواج البحر تتكسر بهدوء على الشاطئ، مرددة أغنيتها الأزلية التي لا تنتهي، بينما كان الكورنيش يعج بالمارة الذين يستمتعون بنسمات المساء المنعشة.

استمر بيومي في تأمل المشهد من شرفة غرفته في الفندق المطل على الكورنيش، عيناه المدربتان تلتقطان كل تفاصيل الجمال. كان يرتدي قميصاً أبيض بسيطاً وبنطالاً أسود، وشعره الأسود الكثيف تتلاعب به نسمات الهواء البحري. أصابعه النحيلة تحركت بشكل لا إرادي، كأنها تلتقط صوراً وهمية للمشهد أمامه، تؤطر زوايا معينة، تختار إضاءات محددة، تحبس لحظات من الزمن في إطارات خيالية.

"هذا هو المكان المناسب،" همس لنفسه وهو يتنفس عميقاً، محاولاً امتصاص كل تفاصيل اللحظة. رائحة البحر المالحة، صوت النوارس البعيد، ضوء الشمس الذهبي وهو ينعكس على واجهات المباني العتيقة، وجوه المارة المتنوعة، كل ذلك كان يشكل سيمفونية بصرية تغذي روحه الفنية.

عاد إلى داخل الغرفة، حيث كانت حقيبته مفتوحة على السرير. أخرج منها كاميرته القديمة، رفيقة دربه منذ سنوات الدراسة في معهد السينما. كانت مخدوشة قليلاً، تحمل آثار سنوات من الاستخدام والترحال، لكنها ما زالت تعمل بكفاءة. كان يشعر نحوها بمودة خاصة، كأنها صديق قديم شاركه أسراره وأحلامه.

تفحص الصور التي التقطها اليوم أثناء تجهيز المعرض، متوقفاً عند كل صورة، متسائلاً عما إذا كانت تنقل الرسالة التي يريدها. كانت مجموعة متنوعة من اللقطات - وجوه مصرية بسيطة تحمل ملامح الكفاح والأمل، أزقة قديمة تختبئ فيها قصص

لا تُحكى، طبيعة ريفية تقاوم زحف الإسمنت، تفاصيل صغيرة من الحياة اليومية تحمل في طياتها جمالاً خفياً لا يراه إلا من يتوقف للنظر بعمق.

رن هاتفه المحمول، فنظر إلى الشاشة: "أستاذ كمال". تردد للحظة قبل أن يجيب. كان أستاذ كمال، أستاذه السابق في المعهد والناقد الفني المرموق، هو السبب الرئيسي وراء إقامة هذا المعرض. لولا دعمه وإيمانه بموهبة بيومي، لما تحقق هذا الحلم.

"مساء الخير يا أستاذ،" أجاب بيومي أخيراً، محاولاً إخفاء التوتر في صوته.

"بيومي! أين أنت؟ الجميع يسأل عنك في حفل العشاء التمهيدي!" جاء صوت أستاذ كمال عبر الهاتف، مزيجاً من العتاب والقلق.

"أنا آسف يا أستاذ، كنت أراجع بعض التفاصيل النهائية للمعرض و—"

"لا وقت للاعتذارات الآن،" قاطعه كمال. "هناك أشخاص مهمون ينتظرون لقاءك. نقاد، صحفيون، مهتمون بالفن. وهناك شخص بشكل خاص يجب أن تقابله - رجل أعمال سوداني مهتم جداً بأعمالك. اسمه أيوب عمر."

"سوداني؟" تساءل بيومي باستغراب. لم يكن يتوقع اهتماماً دولياً بمعرضه الأول.

"نعم، وهو شخصية مرموقة في عالم الفن والثقافة. جاء خصيصاً لرؤية معرضك. أرجوك، أسرع بالحضور. نحن في قاعة فندق سيسيل."

الفصل الرابع: دعوة إلى المجهول

مر افتتاح المعرض بنجاح باهر تجاوز كل توقعات بيومي. امتلأت قاعة المعرض بالزوار والنقاد، وحظيت صوره بإشادة واسعة في الصحف والمجلات الفنية. كانت لحظة فارقة في حياته المهنية، لكن عقله كان مشغولاً بعرض أيوب عمر الذي لم يستطع نسيانه منذ تلك الليلة.

في صباح اليوم التالي لاختتام المعرض، جلس بيومي في مقهى صغير على كورنيش الإسكندرية، يحتسي قهوته ويتأمل البحر. كانت الشمس تسطع في سماء صافية، والنسيم البحري يداعب وجهه. أمامه على الطاولة الخشبية المتآكلة، كانت بطاقة أيوب عمر، وأصابعه تتلاعب بها بتردد، تقلبها مراراً وتكراراً كأنها تحمل سراً غامضاً.

المقهى كان هادئاً في هذا الوقت المبكر من النهار. بضعة صيادين يحتسون الشاي بعد ليلة طويلة في البحر، سائح أجنبي يقرأ كتاباً، نادل عجوز يتحرك ببطء بين الطاولات. كان المكان يحمل سحراً خاصاً، مزيجاً من البساطة والأصالة، وهو ما جذب بيومي إليه منذ سنوات. كان يأتي إلى هذا المقهى تحديداً كلما احتاج للتفكير، للتأمل، لاتخاذ قرارات مهمة.

"لم تتخذ قرارك بعد؟" سألت سلمى وهي تنضم إليه على الطاولة. كانت ترتدي سترة خفيفة فوق قميص أبيض وبنطال جينز، وشعرها مربوط بشكل غير متقن. بدت طبيعية، متألقة في بساطتها.

"كيف عرفتِ أنني سأكون هنا؟" سألها مبتسماً، وهو يسحب كرسياً لها.

"ألنك تأتي إلى هذا المكان تحديداً عندما تحتاج للتفكير. أعرفك منذ عشر سنوات يا بيومي." ابتسمت وهي تجلس، وأشارت للنادل لطلب قهوة.

كان هناك شيء مريح في وجود سلمى، شيء يجعل بيومي يشعر بالطمأنينة والثقة. ربما كان ذلك بسبب تاريخهما المشترك، سنوات الدراسة في معهد السينما، المشاريع التي عملا عليها معاً، الأحلام التي تشاركاها، خيبات الأمل التي تجاوزاها سوياً. كانت سلمى أكثر من مجرد صديقة؛ كانت شريكة روح، شخص يفهمه دون الحاجة للكثير من الكلمات.

"أفكر في عرض أيوب عمر،" قال بيومي أخيراً، بعد لحظات من الصمت. "فيلم وثائقي... في السودان... عن مكان غامض... هل هذه فرصتي الحقيقية؟ أم مجرد مغامرة طائشة؟ هل أترك عملي المستقر كمصور صحفي؟ هل أغامر بكل شيء من أجل حلم قديم؟"

كانت دراسة بيومي في معهد السينما تتقدم بشكل جيد. بدأ يتعلم أساسيات الإخراج السينمائي، من كتابة السيناريو إلى اختيار الزوايا وتوجيه الممثلين. كان أساتذته يلاحظون تطوره السريع، خاصة في قدرته على تحويل خبرته في التصوير الفوتوغرافي إلى لغة سينمائية متكاملة.

في مشروع الفصل الدراسي الأول، قدم بيومي فيلماً قصيراً عن الصيادين في الإسكندرية، مستفيداً من معرفته العميقة بالمكان وعلاقته بالبحر. نال الفيلم إعجاب أساتذته وزملائه، وأكد لهم أن انتقاله من هواية التصوير إلى دراسة الإخراج كان خطوة طبيعية في مساره الفني.

"لقد بدأت كهاوٍ للتصوير، والآن أتعلم كيف أحول الصورة الثابتة إلى قصة متحركة،" قال بيومي لزملائه بعد عرض فيلمه. "الإخراج هو امتداد طبيعي لشغفي بالتصوير."

وصلت قهوة سلمى، وأخذت رشفة صغيرة قبل أن تجيب. "ما الذي يخيفك حقاً؟" سألت بهدوء، عيناها تتفحصان وجهه بعمق.

تنهد بيومي. "الفشل، ربما. أو ربما النجاح."

"النجاح؟" رفعت سلمى حاجبيها في استغراب.

"نعم. ماذا لو نجحت؟ ماذا لو فتح هذا المشروع أبواباً لم أكن مستعداً لها؟ ماذا لو غيّر مسار حياتي بالكامل؟"

ابتسمت سلمى ابتسامة عميقة، وعيناها تلمعان بفهم. "أليس هذا ما نبحث عنه جميعاً؟ لحظات تغير مسار حياتنا؟"

كانت كلماتها بسيطة، لكنها لمست شيئاً عميقاً في داخله. نعم، هذا بالضبط ما كان يبحث عنه طوال حياته - لحظة تغيير، فرصة للخروج من الروتين، للمغامرة، لاكتشاف آفاق جديدة. كان يخشى الركود أكثر من الفشل، الثبات أكثر من المخاطرة.

صمت بيومي للحظات، يتأمل البحر الممتد أمامه، ثم أخرج هاتفه واتصل برقم أيوب عمر. بعد محادثة قصيرة، أغلق الهاتف ونظر إلى سلمى.

"لدينا موعد معه في الثانية ظهراً."

"لدينا؟" رفعت سلمى حاجبيها.

"نعم. أخبرته أنك ستأتين معي. أنت خريجة قسم السيناريو والدراما، أليس كذلك؟ سنحتاج إلى كاتبة موهوبة لهذا المشروع."

اتسعت ابتسامة سلمى. "إذن قررت بالفعل."

"أعتقد أنني قررت منذ اللحظة التي سمعت فيها عرضه."

قضيا الساعات التالية في التجول على كورنيش الإسكندرية، يتحدثان عن المشروع، عن السودان، عن الأفلام الوثائقية التي يحبانها، عن أسلوب الإخراج الذي يفكر به بيومي. كانت أفكاره تتدفق بحماس، وسلمى تستمع، تعلق، تضيف، تصحح. كانا يكملان بعضهما بشكل طبيعي - خياله الجامح وحسها العملي، رؤيته البصرية ومهاراتها السردية.

في الثانية ظهراً، التقى بيومي وسلمى بأيوب عمر في جناحه الفاخر بفندق فور سيزونز. كان أيوب يرتدي قميصاً أبيض بسيطاً وبنطالاً كتانياً، وبدا أكثر استرخاءً من الأمس. كان الجناح فسيحاً، أنيقاً، مطلاً على البحر، مؤثثاً بذوق راقٍ يجمع بين الأناقة الغربية واللمسات الشرقية.

"سعيد برؤيتكما،" رحب بهما أيوب وهو يشير لهما بالجلوس على أريكة مريحة.

"هل قررت يا بيومي؟"

"نعم. أنا مهتم بالمشروع، لكنني أريد معرفة المزيد من التفاصيل."

"بالطبع. اسمحا لي أن أريكما شيئاً أولاً."

فتح أيوب حاسوبه المحمول وأدار الشاشة نحوهما. كانت هناك صور لأهرامات حجرية تنتصب وسط صحراء قاحلة، تحت سماء زرقاء صافية. كانت الأهرامات أصغر من أهرامات الجيزة الشهيرة، لكنها أكثر عدداً، وذات شكل أكثر انحداراً، تنتشر على مساحة واسعة كأنها مدينة للموتى.

"هذه هي البجراوية،" قال أيوب، وصوته يحمل نبرة من الإجلال والفخر. "موقع أثري في شمال السودان، على ضفاف النيل. كانت عاصمة مملكة كوش القديمة، إحدى أعظم الحضارات الأفريقية. لكن القليل من الناس يعرفون عنها، والأقل يزورونها."

تابع أيوب وهو يعرض المزيد من الصور - معابد متهدمة، نقوش حجرية، تماثيل ملكية، مقابر منحوتة في الصخر: "هناك أكثر من مئتي هرم في السودان، أكثر من مصر نفسها. لكنها مهملة، منسية، خارج خريطة السياحة العالمية."

كان بيومي وسلمى منبهرين بالصور. كانت البجراوية تبدو كعالم آخر، مكان خارج الزمن، حيث يلتقي الماضي العريق بالحاضر المتواضع.

"وتريد منا توثيق هذه الآثار؟" سأل بيومي.

"ليس فقط الآثار. أريد توثيق الروح. الناس الذين يعيشون هناك، قصصهم، علاقتهم بهذا التراث. كيف يتعايش الماضي العريق مع الحاضر المتواضع. هذا ليس مجرد فيلم عن آثار، بل عن الهوية والذاكرة والاستمرارية."

شعر بيومي بحماس يتصاعد في داخله. كان هذا بالضبط نوع المشاريع التي طالما حلم بها - مشاريع تتجاوز السطح لتلامس جوهر الإنسان. لم يكن مهتماً بالتصوير السياحي أو التوثيق الجاف للآثار، بل بالقصص الإنسانية، بالتفاصيل الصغيرة التي تكشف عن حقائق كبيرة.

"ما هو دوري تحديداً؟" سألت سلمى.

"أنت كاتبة، أليس كذلك؟" قال أيوب. "نحتاج إلى من يصوغ القصة، يجد الخيط الذي يربط المشاهد والشهادات. الفيلم الوثائقي ليس مجرد تسجيل للواقع، بل رؤية له."

أومأت سلمى برأسها. كانت تفهم تماماً ما يقصده. كانت قد كتبت عدة نصوص لأفلام قصيرة وثائقية خلال دراستها، وكانت تؤمن بقوة السرد حتى في الأعمال الوثائقية.

"وما هو الجدول الزمني المتوقع؟" سأل بيومي.

"شهران للتحضير والبحث، ثم ثلاثة أسابيع للتصوير في السودان. بعدها شهر للمونتاج والإنتاج النهائي."

"وماذا عن التمويل والجوانب اللوجستية؟"

"مؤسستي ستتكفل بكل شيء. السفر، الإقامة، المعدات، فريق العمل المحلي. كل ما عليكما هو التركيز على الجانب الإبداعي."

تبادل بيومي وسلمى نظرات متفاهمة. كان العرض مغرياً بشكل لا يقاوم. فرصة للعمل على مشروع مثير، في مكان استثنائي، مع تمويل كامل ودعم لوجستي. كان حلماً لأي فنان شاب.

"متى تريدنا أن نبدأ؟" سأل بيومي.

ابتسم أيوب. "الفصل الدراسي ينتهي الأسبوع القادم. والإجازة تمتد لشهرين. وقت مثالي للبدء، أليس كذلك؟"

ضحكت سلمى. "تبدو وكأنك تعرف جدولنا الزمني جيداً."

"أنا رجل أعمال. أقوم بواجبي البحثي قبل تقديم أي عرض."

كانت هناك ثقة في صوت أيوب، وذكاء في عينيه، جعلت بيومي يشعر بمزيج من الإعجاب والحذر. كان أيوب شخصية كاريزمية، مقنعة، لكن هناك شيئاً غامضاً فيه، شيئاً لم يستطع بيومي تحديده بدقة.

في نهاية الاجتماع، وقع بيومي وسلمى على عقود العمل. كان بيومي سيعمل كمخرج ومدير تصوير، وسلمى ككاتبة ومساعدة مخرج. كانت بداية مغامرة جديدة لكليهما.

عندما غادرا الفندق، كانت الشمس تميل نحو الغروب، ملقية بألوانها الذهبية على واجهات مباني الإسكندرية العتيقة. كان الهواء منعشاً، والكورنيش يعج بالناس الذين خرجوا للاستمتاع بنسمات المساء.

"هل تعتقدين أننا اتخذنا القرار الصحيح؟" سأل بيومي وهما يسيران ببطء على الكورنيش.

"لا أعرف،" أجابت سلمى بصدق. "لكنني أعرف أننا سنندم إذا لم نحاول."

كانت كلماتها تلخص فلسفتهما المشتركة في الحياة - المغامرة، التجربة، عدم الخوف من الفشل. كانا يؤمنان بأن الندم على ما لم نفعله أسوأ بكثير من الندم على ما فعلناه.

مرت الأسابيع التالية في تحضيرات مكثفة. استقال بيومي من عمله كمصور صحفي في إحدى الصحف المصرية، وأخذت سلمى إجازة من عملها كمدرسة للدراما في

إحدى المدارس الخاصة. قضيا أيامهما في البحث عن السودان وتاريخه وثقافته، وخاصة منطقة البجراوية وآثار مملكة كوش.

كانت شقة بيومي الصغيرة في حي وسط البلد بالقاهرة قد تحولت إلى ما يشبه مركز أبحاث. الجدران مغطاة بخرائط وصور، الطاولات مليئة بالكتب والمقالات، الحاسوب يعرض وثائقيات ومقاطع فيديو عن السودان. كانا يعملان لساعات طويلة، يقرآن، يشاهدان، يناقشان، يخططان.

بعد أشهر من التنقل المرهق بين الإسكندرية والقاهرة، قرر بيومي أخيراً الانتقال للسكن في شقة صغيرة بالقاهرة قريبة من المعهد، مع احتفاظه بحنينه الدائم لشاطئ الإسكندرية ومنزل عائلته هناك.

كان أيوب عمر يرسل لهما مواد بحثية وصوراً ومقاطع فيديو بشكل منتظم. كما نظم لهما لقاءات عبر الإنترنت مع خبراء في التاريخ السوداني والآثار النوبية. كان دعمه شاملاً، مما زاد من حماسهما للمشروع.

في إحدى الأمسيات، بينما كانا يعملان في شقة بيومي، جلست سلمى على الأريكة القديمة، تتصفح كتاباً عن الحضارة الكوشية، بينما كان بيومي يعد القهوة في المطبخ الصغير. كان الجو حاراً رغم مروحة السقف التي تدور بصوت خافت، والنافذة المفتوحة التي تطل على شارع صاخب.

"هل تعتقد أن لأيوب عمر دوافع أخرى وراء هذا المشروع؟" سألت سلمى فجأة.

"ماذا تقصدين؟" سأل بيومي وهو يعود حاملاً كوبين من القهوة.

"لا أعرف بالضبط. لكنه يبدو مهتماً جداً بهذا المشروع بشكل شخصي. كأنه أكثر من مجرد مشروع ثقافي بالنسبة له."

فكر بيومي للحظات وهو يجلس بجانبها. "ربما. لكن هل هذا مهم؟ طالما أن المشروع نفسه ذو قيمة."

"أعتقد أنك محق. لكن من المثير للاهتمام معرفة ما الذي يدفع الناس للقيام بما يقومون به."

كانت سلمى دائماً مهتمة بدوافع الشخصيات، بالقصص الخفية وراء الأفعال الظاهرة. كان ذلك جزءاً من موهبتها ككاتبة - القدرة على رؤية ما وراء السطح، على فهم تعقيدات النفس البشرية.

مع اقتراب موعد السفر، ازداد حماس بيومي وتوتره في آن واحد. كان هذا أكبر مشروع في حياته المهنية، وأول مرة يتولى فيها إخراج فيلم وثائقي كامل. كان يشعر بمزيج من الخوف والإثارة، من الشك والثقة.

في الليلة السابقة للسفر، اتصل به أستاذه كمال ليتمنى له التوفيق. كان كمال قد تابع تطورات المشروع بحماس، وقدم نصائحه وتوجيهاته لبيومي خلال فترة التحضير.

"أنا فخور بك يا بيومي،" قال كمال بصوت دافئ. "لطالما عرفت أن لديك موهبة استثنائية. هذا المشروع سيكون نقطة تحول في مسيرتك."

"أتمنى ألا أخذلك يا أستاذ." كان صوت بيومي يحمل قلقاً حقيقياً. كان رأي أستاذه يعني له الكثير.

"ثق بموهبتك. ثق بعينك. ثق بقلبك. الفن الحقيقي يأتي من هناك."

كانت كلمات كمال بسيطة لكنها عميقة. ذكرته بالدروس الأولى التي تعلمها في المعهد - أن الفن ليس مجرد تقنية، بل رؤية، إحساس، صدق.

بعد المكالمة، جلس بيومي على سريره يتأمل حقائب سفره المغلقة. كان قد أعد كل شيء بعناية - ملابس مناسبة للمناخ الحار، أدوية وإسعافات أولية، معدات التصوير الأساسية (الباقي سيوفره أيوب في السودان)، كتب ومذكرات للبحث. غداً سيبدأ فصل جديد من حياته. فصل لم يكن يتخيله قبل أسابيع قليلة.

أخذ نفساً عميقاً وأغمض عينيه. كان مستعداً للمغامرة، مستعداً لاكتشاف عوالم جديدة، مستعداً لاكتشاف نفسه من جديد.

في صباح اليوم التالي، التقى بيومي وسلمى في مطار القاهرة الدولي. كانت سلمى ترتدي قميصاً أزرق فضفاضاً وبنطالاً واسعاً، وتضع نظارة شمسية كبيرة فوق رأسها. كانت تبدو متحمسة، مشرقة، رغم الساعة المبكرة.

استقرت سلمى في القاهرة منذ سنوات، وأصبحت تعرف شوارعها وأحياءها كما لو أنها ولدت فيها. لكنها كانت دائماً تشعر بحنين خاص للإسكندرية، مدينة طفولتها ومراهقتها، وكانت تخطط دائماً لزيارتها كلما سنحت لها الفرصة.

"أحب القاهرة وأعتبرها بيتي الثاني،" كانت تقول، "لكن الإسكندرية ستظل دائماً بيتي الأول، مهما طال الغياب."

"مستعد للمغامرة؟" سألته مبتسمة.

"مستعد كما لم أكن من قبل،" أجاب بيومي وهو يحمل حقائبه.

كان المطار مزدحماً كالعادة - عائلات تودع مسافرين، سياح يحملون خرائط وكاميرات، رجال أعمال يتحدثون في هواتفهم. لكن بيومي وسلمى كانا في عالم خاص بهما، عالم مليء بالتوقعات والأحلام والخطط.

وبينما كانا يتجهان نحو بوابة المغادرة، لم يكن أي منهما يعلم أن هذه الرحلة ستغير حياتهما إلى الأبد، وأن السودان تخبئ لهما أسراراً وتجارب تتجاوز كل ما كانا يتخيلانه.

كانت الطائرة تستعد للإقلاع، والمضيفات يقدمن تعليمات السلامة الروتينية. جلس بيومي بجانب النافذة، وسلمى إلى جواره. كان قلبه يخفق بقوة، ليس خوفاً من الطيران، بل حماساً للمجهول الذي ينتظرهما.

"هل تعرفين،" همس لسلمى وهو ينظر إلى السماء الزرقاء خارج النافذة، "أشعر وكأننا على أعتاب اكتشاف كبير."

ابتسمت سلمى. "ربما نحن كذلك. ربما البجراوية تنتظرنا لتكشف لنا أسرارها."

"أو ربما نحن من سنكتشف أسراراً في أنفسنا."

ضحكت سلمى. "أصبحت فيلسوفاً فجأة؟"

ضحك بيومي أيضاً. "السفر يفعل ذلك بالناس. يجعلنا نفكر، نتأمل، نتساءل."

أقلعت الطائرة، مخلفة القاهرة وراءها، متجهة نحو الخرطوم. وبينما كانت مصر تتضاءل تحتهم، كان بيومي وسلمى يتطلعان إلى الأمام، إلى مغامرة جديدة، إلى أرض الأهرامات المنسية، إلى شواطئ الأسرار السبعة.

الفصل الخامس: أرض الأهرامات المنسية

هبطت الطائرة في مطار الخرطوم الدولي في صباح يوم حار. كانت السماء صافية زرقاء، والشمس تسطع بقوة تنذر بيوم شديد الحرارة. عندما فتحت أبواب الطائرة، استقبلتهما موجة من الهواء الساخن الجاف، مختلف تماماً عن رطوبة القاهرة التي اعتادا عليها.

تنفس بيومي بعمق، مستنشقاً رائحة أرض جديدة، سماء جديدة، عالم جديد. كان هناك شيء مختلف في هواء السودان - جفاف يحمل عبق التاريخ، رائحة ترابية عميقة تذكر بحضارات قديمة دفنتها الرمال.

"أول مرة تزور السودان؟" سألت سلمى وهي تضع نظارتها الشمسية، مستعدة لمواجهة شمس الخرطوم الحارقة.

"نعم، وأنت؟"

"أيضاً. لطالما أردت زيارة هذا البلد. هناك شيء غامض وجذاب في السودان، أليس كذلك؟"

أومأ بيومي برأسه. كان يشعر بذلك تماماً - جاذبية غامضة، فضول عميق، كأن هذه الأرض تناديه منذ زمن بعيد.

بعد إجراءات الوصول، خرجا إلى صالة الاستقبال حيث كان رجل يقف عند البوابة، يرتدي قميصاً أبيض وبنطالاً بنياً، يحمل لافتة صغيرة كتب عليها اسم بيومي.

"مرحباً بكما في السودان،" قال الرجل بابتسامة عريضة. "أنا عثمان، سائق السيد أيوب. أهلاً وسهلاً بكم في السودان."

صافحهما بحرارة، ثم أخذ حقائبهما وقادهما نحو سيارة سوداء فاخرة متوقفة خارج المطار. كان عثمان رجلاً في الستينيات، نحيلاً، ببشرة سمراء داكنة مجعدة من الشمس، وعينين سوداوين عميقتين تحملان نظرة حكيمة. كان يبتسم ابتسامة

عريضة تكشف عن أسنان بيضاء متباعدة، وتجاعيد عميقة حول عينيه تشهد على حياة طويلة تحت شمس السودان القاسية.

"السيد أيوب ينتظركما في المكتب. سنذهب إلى هناك مباشرة، إذا كان ذلك مناسباً لكما،" قال عثمان وهو يقود السيارة بمهارة عبر شوارع الخرطوم المزدحمة.

"بالطبع. نحن متشوقان للقائه،" أجاب بيومي، عيناه تلتهمان المشاهد الجديدة خارج نافذة السيارة.

كانت الخرطوم مدينة مدهشة - مزيج غريب من القديم والحديث، من التقليدي والعصري. ناطحات سحاب زجاجية تنتصب إلى جانب أسواق تقليدية صاخبة، سيارات فاخرة تمر بجانب عربات تجرها الحمير، نساء يرتدين أحدث صيحات الموضة يسرن بجانب أخريات يرتدين الثوب السوداني التقليدي الملون. كان المشهد يشبه لوحة سريالية، تجمع بين عناصر متناقضة في تناغم غريب.

"هذه أول زيارة لكما للسودان؟" سأل عثمان، عيناه تراقبان الطريق بينما يتحدث.

"نعم،" أجابت سلمى. "لطالما أردت زيارة السودان، لكن لم تسنح لي الفرصة من قبل."

"إذن، أنتما محظوظان. ستزوران أماكن قليلون من السودانيين أنفسهم يعرفونها."

كان هناك فخر في صوت عثمان، وحب عميق لبلده. بدأ يشرح لهما عن الخرطوم، عن تاريخها، عن موقعها الفريد عند ملتقى النيلين الأبيض والأزرق.

"الخرطوم مدينة التناقضات،" علق عثمان وكأنه يقرأ أفكارهما. "تقف عند ملتقى النيلين، الأبيض والأزرق. مثل نقطة التقاء بين عالمين."

كان بيومي يلتقط صوراً ذهنية لكل ما يراه - الوجوه، المباني، الألوان، الحركة. كان يفكر في كيفية توثيق هذا التنوع، هذا التناقض الجميل، في فيلمه. بينما كانت

سلمى تدون ملاحظات سريعة في دفترها الصغير، أفكاراً متناثرة، انطباعات أولية، أسئلة تتراكم في ذهنها.

بعد نصف ساعة، وصلوا إلى مبنى أنيق في حي راقٍ من المدينة. كان المبنى مصمماً بطراز معماري يمزج بين الحداثة والعناصر التقليدية السودانية - واجهة زجاجية عاكسة، لكن بأنماط هندسية مستوحاة من الفن النوبي القديم، حديقة أمامية تضم أشجاراً استوائية ونافورة مركزية.

"هذا هو مقر مؤسسة أيوب عمر الثقافية،" شرح عثمان وهو يوقف السيارة أمام المدخل.

في الداخل، استقبلهم أيوب عمر بحرارة. كان يرتدي جلباباً سودانياً تقليدياً أبيض اللون، مما أضفى عليه هيبة ووقاراً لم يلاحظاه في لقائهما السابق في الإسكندرية. بدا وكأنه شخص مختلف هنا، في أرضه، بين جذوره - أكثر ثقة، أكثر انسجاماً مع نفسه، أكثر أصالة.

"أهلاً بكما في السودان!" رحب بهما. "كيف كانت الرحلة؟"

"ممتازة، شكراً لك،" أجاب بيومي.

"تعالا معي. أريد أن أعرفكما على الفريق المحلي."

قادهم أيوب إلى قاعة اجتماعات واسعة، مضاءة بضوء طبيعي يتسلل عبر نوافذ كبيرة، مؤثثة بأثاث أنيق يجمع بين الراحة والأناقة. كان هناك عدة أشخاص ينتظرون، وقفوا جميعاً عندما دخل أيوب والضيوف.

قدمهم أيوب واحداً تلو الآخر: فاطمة، عالمة آثار متخصصة في الحضارة الكوشية، امرأة في الأربعينيات، ذات وجه جاد وعينين ذكيتين تشعان حماساً عندما تتحدث عن عملها؛ إبراهيم، مصور محلي سيعمل مساعداً لبيومي، شاب في العشرينيات، متحمس، موهوب، يحمل كاميرا حديثة معلقة حول عنقه؛ نور، مترجمة تتقن

اللهجات المحلية، فتاة جامعية تدرس اللغويات، تتحدث العربية والإنجليزية والنوبية بطلاقة؛ وآخرون من الفنيين والمساعدين.

"وهذا عثمان، سيكون سائقكما ومرشدكما خلال إقامتكما هنا،" أضاف أيوب مشيراً إلى الرجل الذي استقبلهما في المطار.

انحنى عثمان قليلاً. "شرف لي أن أكون مرشدكما. أعرف كل شبر في هذه البلاد."

"عثمان ليس مجرد سائق،" قال أيوب. "إنه حافظ ذاكرة. يعرف من القصص والحكايات ما لا تجده في أي كتاب."

كان هناك احترام عميق في صوت أيوب عندما تحدث عن عثمان، وتبادل نظرات خاصة بينهما أوحت لبيومي بأن هناك تاريخاً طويلاً يربط الرجلين.

بعد الاجتماع التمهيدي، اصطحبهم أيوب في جولة قصيرة في المبنى، الذي تبين أنه مقر مؤسسته الثقافية. كان المبنى يضم معرضاً فنياً، ومكتبة، وقاعات للمحاضرات والعروض، ومختبراً للترميم والحفظ، وأستوديو للتصوير والمونتاج.

"مؤسستي تهدف إلى الحفاظ على التراث الثقافي السوداني والترويج له عالمياً،" شرح أيوب. "نحن نؤمن بأن الثقافة هي جسر التواصل بين الشعوب."

كان حماس أيوب معدياً. تحدث عن مشاريع المؤسسة المختلفة - توثيق الموسيقى التقليدية، ترميم المخطوطات القديمة، دعم الحرفيين المحليين، تنظيم معارض فنية، إنتاج أفلام وثائقية. كان مشروع البجراوية أحدث هذه المشاريع وأكثرها طموحاً.

في نهاية الجولة، جلسوا في مكتب أيوب الفسيح المطل على نهر النيل. كانت النافذة الكبيرة تؤطر مشهداً خلاباً - النهر العظيم يتدفق بهدوء، قوارب صغيرة تتهادى على سطحه، أشجار نخيل تتمايل في النسيم على ضفتيه. قدمت لهم مساعدة أيوب شاياً سودانياً معطراً بالقرفة والهيل، مصحوباً بحلويات محلية.

"غداً ستبدأون رحلتكم إلى البجراوية،" قال أيوب. "ستقيمون هناك لمدة أسبوعين للتصوير. عثمان سيكون معكم طوال الوقت، وسينضم إليكم فاطمة وإبراهيم في بعض الأيام."

"هل ستأتي معنا؟" سألت سلمى.

ابتسم أيوب. "للأسف، لدي التزامات هنا في الخرطوم. لكنني سأزوركم في نهاية الأسبوع الأول. هناك... شيء خاص أريد أن أريكم إياه."

كان هناك غموض في نبرة صوته أثار فضول بيومي وسلمى.

"ما هو هذا الشيء الخاص؟" سأل بيومي.

"سترى بنفسك. بعض الأشياء يجب أن تُكتشف في وقتها المناسب."

كانت إجابة أيوب غامضة، لكنها زادت من حماسهما. كان هناك شيء في طريقة حديثه، في نظرة عينيه، يوحي بأن هناك أكثر مما يقوله، أن هناك طبقات من الأسرار تنتظر الكشف.

في المساء، اصطحبهم عثمان إلى منزل ضيافة تابع لمؤسسة أيوب، حيث سيقيمان خلال وجودهما في الخرطوم. كان المنزل صغيراً لكنه أنيق، مؤثث بمزيج من الأثاث العصري والتقليدي. غرف نوم مريحة، صالة جلوس مفتوحة، مطبخ صغير مجهز، وشرفة تطل على حديقة خلفية هادئة.

"سأمر عليكما غداً في السادسة صباحاً،" قال عثمان. "الطريق إلى البجراوية يستغرق حوالي ثلاث ساعات. من الأفضل أن نصل قبل اشتداد حرارة النهار."

بعد مغادرة عثمان، جلس بيومي وسلمى في شرفة المنزل المطلة على الحديقة الصغيرة. كان الليل قد خيم على المدينة، والهواء أكثر برودة وعذوبة. أصوات المدينة البعيدة تصل إليهما مخففة، كهمهمة خافتة، بينما تملأ أصوات الحشرات والطيور الليلية الحديقة بسيمفونية طبيعية هادئة.

"ما رأيك حتى الآن؟" سأل بيومي.

"مذهل،" أجابت سلمى. "كل شيء يبدو... حقيقياً. أصيلاً. مختلفاً عما توقعت."

"وأيوب عمر؟"

"شخصية مثيرة للاهتمام. يبدو شغوفاً حقاً بهذا المشروع. لكن..."

"لكن ماذا؟"

"أشعر أن هناك شيئاً لا يخبرنا به. شيئاً شخصياً يربطه بهذا المكان."

فكر بيومي للحظات. "ربما. لكن هذا يجعل الأمر أكثر إثارة، أليس كذلك؟"

ابتسمت سلمى. "بالتأكيد. أحب الغموض في القصص."

"وهذه قصتنا الآن."

ناما تلك الليلة وهما يحلمان بالبجراوية، بالأهرامات المنسية، بالأسرار التي تنتظرهما. كان النوم متقطعاً، مليئاً بأحلام غريبة - صحراء ذهبية تمتد إلى ما لا نهاية، أهرامات تلوح في الأفق كأشباح، أصوات همسات قديمة تتردد في الهواء.

في صباح اليوم التالي، كان عثمان في انتظارهما في الموعد المحدد تماماً. حملوا معداتهم - كاميرات بيومي، وحاسوب سلمى المحمول، وحقائب ملابسهما - ووضعوها في سيارة الدفع الرباعي التي ستقلهم إلى البجراوية.

غادروا الخرطوم مع شروق الشمس، متجهين شمالاً على طول نهر النيل. كان المشهد خارج النافذة يتغير تدريجياً من المناطق الحضرية إلى الريفية، ثم إلى الصحراوية. المباني العالية تختفي، لتحل محلها قرى بسيطة، ثم مساحات شاسعة من الأرض القاحلة، تتخللها واحات خضراء على ضفاف النيل.

"هذه المنطقة تسمى الصحراء النوبية،" شرح عثمان. "كانت موطن حضارات عظيمة منذ آلاف السنين. مملكة كوش، مملكة نبتة، مملكة مروي. كلها ازدهرت هنا، على ضفاف النيل."

كان عثمان مصدراً لا ينضب من المعلومات والقصص. حكى لهما عن تاريخ المنطقة، عن الملكات الكوشيات اللواتي حكمن بقوة وحكمة، عن العلاقات المعقدة بين مصر القديمة والممالك النوبية. كان يتحدث بحماس، بفخر، كأنه يتحدث عن تاريخ عائلته الشخصية.

"الناس يعرفون الكثير عن الفراعنة المصريين،" قال. "لكنهم لا يعرفون شيئاً عن ملوك وملكات كوش، الذين حكموا مصر نفسها لفترة من الزمن."

كان بيومي يستمع بانبهار، يسجل بعض الملاحظات الصوتية على هاتفه، بينما كانت سلمى تدون كل شيء في دفترها. كانا يدركان أن هذه المعلومات ستكون أساسية لفيلمهما، وأن عثمان كنز من المعرفة يجب الاستفادة منه.

توقفوا للراحة في قرية صغيرة على ضفاف النيل. كانت القرية بسيطة - بيوت طينية متواضعة، أطفال يلعبون في الساحة المركزية، نساء يحملن جرار الماء على رؤوسهن، رجال يعملون في الحقول القريبة. تناولوا شاياً في مقهى بسيط، واستمعوا إلى قصص السكان المحليين عن الحياة في ظل الأهرامات القديمة.

بعد ثلاث ساعات من القيادة، بدأت تلوح في الأفق أهرامات حجرية صغيرة نسبياً مقارنة بأهرامات مصر، لكنها مهيبة في وقوفها الصامد ضد الزمن.

"ها هي البجراوية،" أعلن عثمان بفخر.

كان المشهد مهيباً - مجموعة من الأهرامات المدببة تنتصب وسط صحراء ذهبية، تحت سماء زرقاء صافية. كانت الأهرامات تبدو كأنها تنبثق من الرمال، كأنها جزء طبيعي من المشهد، وليست من صنع البشر. حولها، امتدت أطلال معابد ومبانٍ قديمة، شاهدة على عظمة حضارة غابرة.

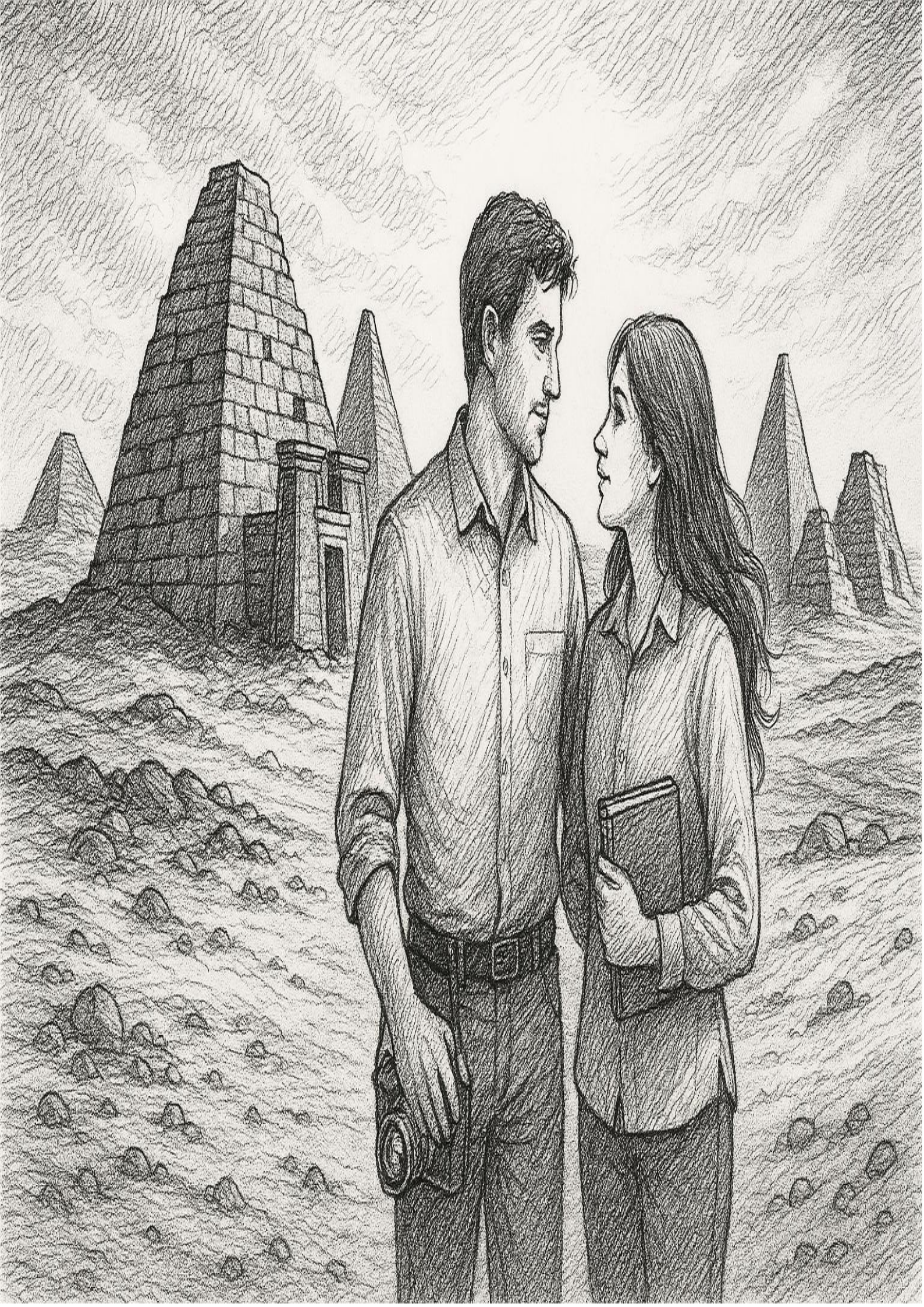

توقفت السيارة أمام مجمع سياحي صغير، يتكون من عدة أكواخ تقليدية مبنية من الطين والقش. كان المكان بسيطاً لكنه نظيف ومريح، ويوفر إطلالة مباشرة على الأهرامات.

"هذا سيكون مقر إقامتكم،" قال عثمان. "استريحا قليلاً، ثم سنبدأ جولتنا الأولى بعد الغداء."

كان الكوخ المخصص لهما بسيطاً لكنه مريح - غرفتا نوم صغيرتان، حمام مشترك، وشرفة صغيرة تطل على الأهرامات. كان الأثاث بسيطاً - أسرّة خشبية، طاولة صغيرة، كراسي من الخيزران. لكن المكان كان نظيفاً، والهواء منعشاً رغم حرارة الجو، والإطلالة لا تقدر بثمن.

في الظهيرة، تناولوا غداءً تقليدياً سودانياً - خبز الكسرة مع مرق اللحم والخضروات، وسلطة طازجة، وشاي بالنعناع. كان الطعام بسيطاً لكنه لذيذ ومشبع، مليء بنكهات جديدة لم يجرباها من قبل.

بعد الغداء، بدأوا جولتهم الأولى في الموقع الأثري. حمل بيومي كاميرته، وأخذت سلمى دفتر ملاحظاتها، وقادهم عثمان عبر الموقع. كان المكان هادئاً بشكل غريب، خالياً من الزوار باستثناء بعض العمال المحليين وحراس الآثار. كان الصمت مهيباً، كأن المكان يحبس أنفاسه احتراماً لعظمة الماضي.

"هذه أهرامات مملكة مروي،" شرح عثمان. "بنيت بين القرن الثامن قبل الميلاد والقرن الرابع الميالدي. كانت مقابر للملوك والملكات والنبلاء."

كانت الأهرامات تنتصب بصمت وكبرياء وسط الصحراء، شاهدة على عظمة حضارة غابرة. كان بيومي منبهراً بالمشهد، يلتقط الصور من زوايا مختلفة، محاولاً التقاط روح المكان. كان الضوء مثالياً - شمس العصر تلقي بظلال طويلة، تبرز تفاصيل الحجارة القديمة، تخلق تبايناً دراماتيكياً بين الضوء والظل.

"ما يدهشني هو الصمت،" قالت سلمى. "في مصر، المواقع الأثرية مزدحمة بالسياح. هنا، كأننا وحدنا مع التاريخ."

"هذا ما يجعل هذا المكان خاصاً،" وافقها عثمان. "يمكنك أن تسمع صوت الماضي هنا، دون ضجيج الحاضر."

قادهم عثمان عبر الموقع، شارحاً تاريخ كل هرم، كل معبد، كل نقش. كان يتحدث بحماس، بمعرفة عميقة، كأنه يروي قصة عائلته. وبينما كانوا يتجولون، بدأ بيومي يلاحظ تفاصيل صغيرة - نقوش غريبة على بعض الأحجار، رموز لا يفهم معناها، أنماط متكررة تبدو ذات مغزى خاص.

"ما هذه الرموز؟" سأل، مشيراً إلى نقش غريب على أحد الأعمدة المتهدمة.

توقف عثمان، ونظر إلى النقش بتمعن. "هذه رموز مقدسة. كانت تستخدم في الطقوس الدينية. يقال إنها تحمي المكان من الأرواح الشريرة."

"وهل ما زال الناس يؤمنون بهذه الأشياء؟" سألت سلمى.

ابتسم عثمان ابتسامة غامضة. "بعض الناس، نعم. الإيمان القديم لم يمت تماماً. إنه يختبئ تحت طبقات من الديانات الجديدة، لكنه ما زال حياً في القلوب والعقول."

مع غروب الشمس، جلسوا على تلة صغيرة تطل على الأهرامات. كانت الشمس تلقي بأشعتها الأخيرة على الأحجار القديمة، مانحة إياها لوناً ذهبياً دافئاً. كان المشهد ساحراً - الأهرامات تتوهج كأنها مشتعلة من الداخل، الصحراء تتحول إلى بحر من الذهب السائل، السماء تتلون بألوان الشفق الساحرة.

"غداً سنزور القرى المحيطة،" قال عثمان. "ستلتقون بالناس الذين يعيشون في ظل هذه الأهرامات. أحفاد بناتها."

في تلك الليلة، جلس بيومي وسلمى خارج كوخهما، يتأملان السماء المرصعة بالنجوم. كانت النجوم هنا أكثر سطوعاً وقرباً مما رأياه من قبل، كأنها قريبة بما

يكفي للمسها. كان الليل هادئاً، باستثناء أصوات الحشرات البعيدة وعواء ذئب صحراوي في مكان ما.

"أشعر وكأننا في عالم آخر،" همست سلمى.

"أو في زمن آخر،" أضاف بيومي.

"هل تعتقد أن هذا المشروع سيغير حياتنا؟"

فكر بيومي للحظات. "أعتقد أنه يغيرها بالفعل."

كان هناك شيء في هذا المكان، في هذه اللحظة، جعلهما يشعران بالتواصل العميق - مع بعضهما، مع الماضي، مع شيء أكبر من أنفسهما. كأن البجراوية كانت تكشف لهما أسراراً لم يكونا مستعدين لها بعد، تفتح لهما أبواباً لم يعرفا بوجودها.

مرت الأيام التالية في استكشاف المنطقة وتوثيقها. زاروا القرى المحيطة، التقوا بالسكان المحليين، سجلوا قصصهم وتقاليدهم. كان بيومي يلتقط صوراً مذهلة للحياة اليومية في ظل الأهرامات - أطفال يلعبون بالقرب من آثار عمرها آلاف السنين، نساء يحملن جرار الماء على رؤوسهن، رعاة يقودون قطعانهم عبر الصحراء، شيوخ يجلسون في ظل شجرة قديمة يروون حكايات الماضي.

كانت سلمى تدون كل شيء، تجمع القصص والأساطير المحلية، تبحث عن الخيط الذي سيربط كل هذه المشاهد في قصة متماسكة. كانت منبهرة بالتناقض بين عظمة الماضي وبساطة الحاضر، بين الأهرامات الشامخة والحياة البسيطة التي تدب حولها.

وفي مساء اليوم الخامس، بينما كانا يجلسان خارج الكوخ يراجعان مواد اليوم، قالت سلمى بحماس متزايد: "البجراوية مكان استثنائي، بيومي. ليس فقط من الناحية الأثرية، بل من الناحية الروحية أيضاً. هناك أساطير كثيرة حولها. يقال إنها... بوابة."

نظر إليها بيومي باستغراب ودهشة، وسأل: "بوابة؟ إلى ماذا؟"

خفضت سلمى صوتها وهي تتحدث إليه، كأنها تخشى أن تسمعها الجدران: "إلى عالم آخر. عالم الأرواح والأسرار. هناك نصوص صوفية قديمة تتحدث عن البجراوية كنقطة التقاء بين عالمنا وعوالم أخرى."

كانت عينا سلمى تلمعان بحماس غريب، وصوتها يحمل نبرة من الإيمان العميق. كانت قد قضت الساعات الماضية تقرأ في كتاب قديم اقترضته من أحد سكان القرية، كتاب يتحدث عن الأساطير والمعتقدات المرتبطة بالبجراوية.

"هل تصدقين هذه الأشياء؟" سأل بيومي، غير متأكد مما يشعر به تجاه هذه الأفكار الغريبة.

"لا أعرف. لكن هناك شيء في هذا المكان... ألا تشعر به؟ شيء غامض، قوي، يتجاوز ما يمكن تفسيره بالعقل والمنطق."

كان بيومي يشعر بذلك بالفعل. منذ وصولهما، كان هناك إحساس غريب يلازمه - كأن المكان يراقبه، يتحدث إليه بلغة لا يفهمها تماماً، يدعوه لاكتشاف أسرار مدفونة تحت رمال الزمن.

نهض بيومي وتبعته سلمى إلى المخيم، المكان مليء بالفوضى، مليء بالكتب والصور والأفلام. شرفة صغيرة تطل على السماء الصافية، جدران مغطاة بصور التقطها بيومي خلال رحلته وبحثه مع سلمى عن المدخل إلى الفيلم الوثائقي الجديد. تتمتم سلمى بكلمات غير مسموعة لكن أذن بيومي تلتقط بعضها، "إنها فرصة مذهلة! فيلم وثائقي عن البجراوية!.. إنه يجمع بين شغفينا. أنت وعالم الصورة، أنا وعالم الأساطير القديمة. كأنه... مصمم خصيصاً لنا."

جلس على أريكة قديمة، يتصفح كتاباً عن السودان، يبحث عن معلومات عن البجراوية. على الطاولة أمامه، كوب قهوة بارد، دفتر ملاحظات مليء بخربشات وأفكار متناثرة.

نطق بيومي موجهاً كلامه لسلمى: "مشروع الفيلم الوثائقي عن البجراوية — تاريخها، آثارها، أساطيرها، وأهم من ذلك، روحها. ليس مجرد فيلم سياحي أو تعليمي، بل عمل فني يلتقط جوهر المكان."

سلمى تسأله في لهفة: "وما هو جوهر المكان برأيك؟"

بيومي ينظر بعمق في عيني سلمى ويقول: "الغموض. التناقض. كونها نقطة التقاء بين عوالم مختلفة — الماضي والحاضر، الواقع والأسطورة، المادي والروحي."

سلمى تقول في تأكيد: "تبدو مهتماً جداً بالجانب الأسطوري للمكان."

يرد عليها بيومي وعيناه تبرقان بضوء باهر: "لأنه جزء أساسي من هوية المكان. البجراوية ليست مجرد موقع أثري. هي مكان له تأثير غريب على من يزوره. الناس يشعرون هناك بأشياء... يرون أشياء... يختبرون أشياء لا يمكن تفسيرها منطقياً."

يشعر بيومي في هذه اللحظة بشيء مختلف. يشعر أن الفيلم الذي يريد صنعه لم يكن مجرد سرد لقصة، بل كان رحلة لاستكشاف الروح السودانية نفسها. هذه الروح التي تتقاطع مع الزمن وتختبئ في جدران البنايات القديمة، في ضحكات الأطفال، وفي الهمسات التي تملأ الأسواق.

تعثر سلمى المنهمكة في البحث على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)، على صورة بين الأوراق، تجد صورة غريبة — صورة قديمة باللونين الأبيض والأسود، تظهر رجلاً يقف أمام أحد أهرامات البجراوية. الرجل يرتدي ملابس استكشافية من طراز ثلاثينيات القرن الماضي، ينظر إلى الكاميرا بنظرة ثاقبة. يشبه أيوب عمر بشكل مذهل.

بيومي ينظر إلى الصورة باستغراب قبل أن ينطق، يجد كتابة باهتة: "عمر محمود، البجراوية، 1937."

"عمر محمود... جد أيوب عمر؟ ما علاقة هذه العائلة بالبجراوية؟ وما هو السر الذي يحاول أيوب إخفاءه؟"

يشعر بيومي في هذه اللحظة بموجة من الدهشة والحيرة تجتاح قلبه، في هذه اللحظة يستلم فكرة عبقرية كمدخل إلى الفيلم.

ينطق متحدثاً إلى نفسه "البجراوية ليست مجرد مدينة أثرية. إنها مكان مقدس، مكان ذو طاقة روحية خاصة. يقرأ قصاصة مكتوب عليها: "كانت مركزاً للطرق الصوفية لقرون. الأولياء والدراويش كانوا يأتون إليها من كل أنحاء العالم الإسلامي للتأمل والعبادة."

يستمر في الحديث إلى نفسه بصوت هامس: "أريد فيلماً يوثق هذا الجانب الروحي، الصوفي من المدينة. ليس فيلماً أثرياً جافاً، ولا فيلماً دينياً تقليدياً. بل فيلماً يلتقط روح المكان، صداه الداخلي، تأثيره على النفس البشرية."

لكن أكثر ما أثار استغرابه، هي الصورة التي عثرت عليها سلمى خلال بحثها على شبكة الإنترنت.

يخرج بيومي من المخيم وفي يديه كاميرته القديمة، ويعود إلى حيث كان يجلس إلى جوار سلمى، السماء فوقهما صافية كقطعة زجاج أزرق. لا غيوم، لا شوائب، فقط زرقة لانهائية تمتد حتى تلتقي بالأفق الذهبي للصحراء.

يجلسان جنباً إلى جنب. بيومي يلتقط صوراً متتالية للمشهد الصحراوي المذهل، كاميرته لا تتوقف عن التقاط اللحظات. سلمى تدون ملاحظات في دفترها الصغير، أفكار متناثرة، انطباعات أولية، أسئلة تتراكم في ذهنها.

تقول سلمى قاطعة حاجز الصمت: "المشهد هنا يا بيومي مختلف تماماً عن مصر. الصحراء هنا... أكثر ذهبية، أكثر نقاءً."

يرد بيومي في ثقة وهو يلتقط صورة: "لأنها صحراء لم تلوثها الحضارة بعد. ما زالت تحتفظ بطاقتها الأصلية، بروحها البكر."

ينهض بيومي ويخطو خطوات ثابتة ناحية تبة حجرية عالية، وينظر من أعلى: تظهر البجراوية فجأة وسط الصحراء الذهبية ـــ مجموعة من الأهرامات المدببة، أصغر من أهرامات الجيزة لكنها أكثر عدداً، تنتشر على مساحة واسعة كأنها مدينة للموتى. حولها، أطلال معابد ومبانٍ قديمة، وبقايا سور حجري يحيط بالمدينة القديمة. النيل يمر على مسافة قريبة، يرسل فروعاً صغيرة من المياه تتغلغل في الأرض المحيطة، مشكلة بقعاً خضراء متناثرة وسط الذهب الصحراوي.

يقول بصوت مبهور، وحالم: "يا إلهي... إنها مذهلة!".

بنبرة هادئة ترد سلمى عليه قائلة في حماس: "هي كذلك بالفعل. البجراوية ليست مجرد مدينة أثرية. إنها بوابة بين عالمين."

تقرأ قصاصة من مدوناتها بصوت عالٍ لتسمع بيومي: "البجراوية كانت عاصمة مملكة كوش القديمة. ثم أصبحت مركزاً للطرق الصوفية بعد دخول الإسلام. الأولياء كانوا يأتون إليها من كل مكان للخلوة والتأمل."

يستفسر بيومي وقد عاد إلى مكانه مرة أخرى: "لماذا هذا المكان تحديداً؟"

تبتسم سلمى وتقول: "بعد ما قرأت اتضح لي أن الحجاب بين العوالم رقيق هنا. البجراوية تقع على تقاطع خطوط الطاقة الروحية. المتصوفة يسمونها 'مفتاح الأسرار'."

يستفسر بيومي، "وماذا عن الأهرامات؟".

ترد سلمى قائلة: "بعد مطالعتي لكثير من المقالات التي تؤكد على أن الأهرامات بُنيت كمقابر لملوك كوش. لكن المتصوفة يعتقدون أنها أكثر من مجرد مقابر. يقولون إنها بوابات للعوالم العليا."

كان الليل قد خيم على البجراوية، والنجوم تتلألأ في السماء كجواهر منثورة على قطيفة سوداء. جلس بيومي وسلمى خارج كوخهما، يتأملان المشهد الساحر - الأهرامات تبدو كأشباح سوداء تحت ضوء القمر، الصحراء تتحول إلى بحر فضي يمتد إلى ما لا نهاية، الصمت يلف المكان كغلالة سحرية.

"هل تعتقد أن أيوب سيخبرنا بالحقيقة عندما يأتي؟" سألت سلمى.

"أي حقيقة؟"

"حقيقة علاقته بهذا المكان. حقيقة الصورة التي وجدناها. حقيقة المشروع كله."

فكر بيومي للحظات. "لا أعرف. لكنني أعرف أننا سنكتشف الحقيقة بأنفسنا، عاجلاً أم آجلاً."

كانت كلماته تحمل ثقة غريبة، كأنه يعرف أن البجراوية نفسها ستكشف لهما أسرارها، في الوقت المناسب، بالطريقة المناسبة.

وبينما كانا يجلسان هناك، تحت سماء البجراوية المرصعة بالنجوم، كان كلاهما يشعر بأن هذه المغامرة أكبر مما توقعا، وأن الأيام القادمة تخبئ لهما مفاجآت وأسراراً لم يكونا مستعدين لها بعد.

الفصل السادس: الصورة القديمة

في صباح اليوم السادس من إقامتهما في البجراوية، استيقظ بيومي على صوت طرق خفيف على باب الكوخ. كانت الشمس قد بدأت للتو بالظهور في الأفق، ملقية بخيوطها الذهبية الأولى على الصحراء النائمة. فتح الباب ليجد عثمان واقفاً هناك، يرتدي جلباباً أبيض نظيفاً وعمامة بيضاء، وعلى وجهه ابتسامة هادئة.

"صباح الخير يا بيومي. آسف للإزعاج المبكر، لكن السيد أيوب وصل للتو. إنه ينتظركما عند الهرم الكبير."

شعر بيومي بدقات قلبه تتسارع. أيوب هنا! قبل الموعد المحدد بيومين. هل هناك شيء حدث؟ هل اكتشف أمر الصورة القديمة التي عثرا عليها؟

"سنكون جاهزين خلال عشر دقائق،" قال بيومي، محاولاً إخفاء توتره.

أيقظ سلمى التي كانت نائمة في الغرفة المجاورة، وأخبرها بوصول أيوب المفاجئ. ارتديا ملابسهما بسرعة - بيومي اختار قميصاً أزرق خفيفاً وبنطالاً كتانياً، بينما ارتدت سلمى قميصاً فضفاضاً وبنطالاً واسعاً وغطت شعرها بوشاح خفيف لحمايته من الشمس والرمال.

"هل تعتقد أنه اكتشف أمر الصورة؟" همست سلمى وهي تضع نظارتها الشمسية.

"لا أعرف. لكن سنعرف قريباً."

خرجا من الكوخ ليجدا عثمان في انتظارهما. قادهما عبر الموقع الأثري، متجهاً نحو أكبر الأهرامات في المجموعة، المعروف محلياً باسم "هرم الملك". كان الهرم يقف شامخاً وسط الصحراء، أكثر ارتفاعاً وضخامة من الأهرامات المحيطة به، مع واجهة منحوتة بنقوش معقدة تحكي قصصاً من الماضي البعيد.

وعند سفح الهرم، رأيا أيوب عمر واقفاً وحيداً، يرتدي جلباباً أبيض وعمامة سوداء، ويتكئ على عصا خشبية منحوتة بزخارف دقيقة. كان يبدو مختلفاً تماماً عن رجل

الأعمال الأنيق الذي قابلاه في الإسكندرية والخرطوم. هنا، في البجراوية، بدا وكأنه شخصية من زمن آخر، كاهن قديم أو حكيم صوفي.

"أهلاً بكما،" رحب بهما أيوب بابتسامة هادئة. "آسف للقدوم المفاجئ، لكنني شعرت أن الوقت قد حان."

"الوقت حان لماذا؟" سأل بيومي، محاولاً قراءة تعبيرات وجه أيوب.

"لأريكما شيئاً. شيئاً قليلون جداً رأوه."

أشار أيوب لهما بمتابعته، وبدأ يدور حول الهرم، متجهاً نحو الجانب الشمالي منه. كان بيومي وسلمى يتبادلان نظرات متسائلة، لكنهما تبعاه في صمت. الشمس كانت ترتفع ببطء في السماء، والحرارة تزداد تدريجياً، لكن هناك نسيم خفيف منعش كان يهب من اتجاه النيل البعيد.

توقف أيوب أمام جزء من جدار الهرم يبدو عادياً للوهلة الأولى. لكن عند التدقيق، يمكن ملاحظة أن الأحجار هنا مرتبة بطريقة مختلفة قليلاً، وأن هناك نقوشاً خفية تكاد لا تُرى إلا تحت زاوية معينة من الضوء.

"هذا مدخل سري،" قال أيوب بصوت خافت. "مدخل لا يعرفه السياح ولا علماء الآثار."

ضغط أيوب على حجر معين بطريقة خاصة، ثم دفع مجموعة من الأحجار المجاورة بترتيب محدد. وببطء، انفتح جزء من الجدار، كاشفاً عن ممر ضيق يؤدي إلى داخل الهرم.

"اتبعاني،" قال أيوب، وهو يخطو إلى الداخل، مضيئاً الطريق بمصباح يدوي صغير أخرجه من جيبه.

تردد بيومي وسلمى للحظة. كان هناك شيء مخيف في فكرة دخول ممر سري في هرم قديم، مع رجل بدأوا يشكون في حقيقة هويته ودوافعه. لكن فضولهما كان أقوى من خوفهما.

"هل أنت متأكد أن هذا آمن؟" سألت سلمى، وهي تنظر إلى الممر المظلم بتردد.

"لا تقلقي. هذا الممر استُخدم لآلاف السنين. وأنا أعرفه جيداً."

دخلوا الممر واحداً تلو الآخر - أيوب أولاً، ثم بيومي، ثم سلمى. كان الممر ضيقاً، منخفض السقف، مما اضطرهم للانحناء قليلاً أثناء المشي. كان الهواء داخل الهرم بارداً بشكل مفاجئ، ورطباً قليلاً، مع رائحة غريبة - مزيج من التراب القديم والأعشاب العطرية وشيء آخر لا يمكن تحديده.

بعد حوالي عشرين متراً من المشي في الممر المتعرج، وصلوا إلى غرفة صغيرة مستديرة. كانت الغرفة خالية تقريباً، باستثناء منصة حجرية في المنتصف، وبعض النقوش والرسومات على الجدران. أضاء أيوب مشاعل كانت موضوعة في حوامل على الجدران، مما ملأ الغرفة بضوء ذهبي دافئ ومتراقص.

"هذه غرفة الأسرار،" قال أيوب بصوت خافت، كأنه يخشى إزعاج أرواح المكان. "كانت تُستخدم للطقوس الخاصة، وللحفاظ على الأسرار المقدسة لمملكة كوش."

اقترب أيوب من المنصة الحجرية، وضغط على جزء معين منها. انفتح جزء من سطح المنصة، كاشفاً عن تجويف صغير. أخرج أيوب من التجويف صندوقاً خشبياً صغيراً، مزخرفاً بنقوش معقدة ومطعماً بالعاج والأحجار الكريمة.

"هذا الصندوق ظل محفوظاً هنا لأكثر من ألف عام،" قال أيوب. "يحتوي على سر عائلتي."

فتح أيوب الصندوق ببطء، وأخرج منه شيئاً ملفوفاً بقطعة قماش حريرية قديمة. فك القماش بعناية، كاشفاً عن قلادة ذهبية غريبة الشكل. كانت القلادة على شكل قرص

دائري، منقوش عليه رموز غريبة ونجمة سباعية في المنتصف، مع حجر أزرق غامق يتوسط النجمة.

"هذه قلادة الأسرار السبعة،" قال أيوب. "تناقلتها عائلتي جيلاً بعد جيل، منذ عهد ملوك كوش."

نظر بيومي وسلمى إلى القلادة بانبهار. كانت تشع بريقاً غريباً في ضوء المشاعل، كأنها تحمل طاقة خاصة، قوة غامضة من زمن سحيق.

"ما علاقة هذه القلادة بمشروعنا؟" سأل بيومي، محاولاً فهم سبب إظهار أيوب لهذا السر العائلي لهما.

ابتسم أيوب ابتسامة غامضة. "كل شيء مترابط يا بيومي. القلادة، البجراوية، المشروع، أنتما... كل شيء جزء من خطة أكبر."

شعر بيومي بقشعريرة تسري في جسده. كانت كلمات أيوب غامضة، لكنها تحمل نبرة من اليقين، من المعرفة العميقة، كأنه يرى صورة أكبر لا يستطيعون رؤيتها.

"أعتقد أنكما وجدتما الصورة،" قال أيوب فجأة، مغيراً مجرى الحديث.

تبادل بيومي وسلمى نظرات مذعورة. كيف عرف؟

"أي صورة؟" حاول بيومي التظاهر بالجهل.

ضحك أيوب ضحكة هادئة. "الصورة القديمة. صورة جدي عمر محمود في البجراوية عام 1937. لا تقلقا، كنت أتوقع أن تجداها. في الواقع، كنت آمل ذلك."

أخرج أيوب من جيبه صورة قديمة أخرى، وناولها لبيومي. كانت صورة للرجل نفسه الذي رأوه في الصورة الأولى، لكن هذه المرة كان يقف في هذه الغرفة تحديداً، يحمل القلادة نفسها التي أظهرها لهم أيوب للتو.

"جدي كان عالم آثار وباحثاً في التصوف،" شرح أيوب. "اكتشف هذه الغرفة وهذه القلادة خلال تنقيباته هنا. لكنه أدرك أن هذا الاكتشاف أكبر من مجرد قطعة أثرية. إنه مفتاح لفهم أعمق للوجود."

صمت أيوب للحظات، كأنه يفكر في كيفية شرح الأمر لهما، ثم تابع: "القلادة، وفقاً للنصوص القديمة، هي مفتاح لفتح بوابات بين العوالم. ليس بالمعنى الحرفي، بل بمعنى روحي، معرفي. تسمح لحاملها برؤية ما لا يراه الآخرون، بفهم ما لا يفهمه الآخرون."

كان بيومي يستمع بمزيج من الشك والفضول. كان جزء منه يعتقد أن أيوب يبالغ، أو ربما يختلق قصة درامية لفيلمهم. لكن جزءاً آخر كان يشعر بصدق غريب في كلماته، بحقيقة عميقة تتجاوز المنطق العادي.

"وما علاقة هذا بفيلمنا الوثائقي؟" سألت سلمى.

"أريد لفيلمكما أن يكون أكثر من مجرد توثيق للآثار والتاريخ. أريده أن يكشف عن الروح الحقيقية للبجراوية، عن أسرارها العميقة، عن تأثيرها على النفس البشرية." أعاد أيوب القلادة إلى الصندوق، وأغلقه بعناية، ثم وضعه في التجويف وأغلق المنصة. "هذا ليس كل شيء. هناك المزيد لأريكما إياه. لكن ليس اليوم. اليوم كان مجرد بداية."

غادروا الغرفة السرية، وعادوا عبر الممر الضيق إلى خارج الهرم. كان الضوء الساطع للشمس قاسياً على أعينهم بعد الظلام النسبي داخل الهرم، مما اضطرهم للرمش عدة مرات للتكيف.

"سأبقى في البجراوية لبضعة أيام،" قال أيوب. "سنتحدث أكثر عن المشروع، وسأريكما أماكن أخرى خاصة. لكن الآن، أحتاج للراحة. الرحلة من الخرطوم كانت متعبة."

ودعهم أيوب وذهب مع عثمان إلى كوخ آخر في المخيم، تاركاً بيومي وسلمى وحدهما، غارقين في أفكارهما وتساؤلاتهما.

عادا إلى كوخهما في صمت، كل منهما يحاول استيعاب ما رأياه وسمعاه. كان المشروع يتخذ منحى غير متوقع، يتجاوز فكرة الفيلم الوثائقي التقليدي إلى شيء أكثر غموضاً وعمقاً.

في المساء، جلسا خارج الكوخ، يشاهدان غروب الشمس فوق الأهرامات. كان المشهد ساحراً كالعادة - السماء تتلون بتدرجات من الذهبي والبرتقالي والأرجواني، الأهرامات تلقي بظلال طويلة على الرمال الذهبية، الصمت يلف المكان باستثناء صوت النسيم الخفيف وزقزقة بعض الطيور البعيدة.

"ما رأيك في كل هذا؟" سأل بيومي أخيراً، كاسراً الصمت الذي استمر طويلاً.

تنهدت سلمى. "لا أعرف. جزء مني يعتقد أن أيوب يبالغ، أو ربما يحاول خلق قصة درامية لفيلمنا. لكن جزءاً آخر... هناك شيء في هذا المكان، بيومي. شيء لا يمكن تفسيره بالمنطق العادي."

"أعرف ما تقصدين. منذ وصولنا إلى هنا، وأنا أشعر بشيء غريب. كأن المكان يتحدث إلي، يحاول إخباري بشيء لا أستطيع فهمه تماماً."

"هل تعتقد أن قصة القلادة حقيقية؟"

فكر بيومي للحظات. "لا أعرف. لكن ما رأيناه اليوم كان حقيقياً - الغرفة السرية، الصندوق، القلادة نفسها. هذه أشياء ملموسة، ليست مجرد قصص."

"وماذا عن فكرة البوابات بين العوالم؟ هل تصدق ذلك؟"

ابتسم بيومي. "دعينا نقل إنني منفتح على الاحتمالات. العالم أكثر غموضاً وتعقيداً مما نعتقد."

ضحكت سلمى. "أصبحت فيلسوفاً فجأة!"

"البجراوية تفعل ذلك بالناس. تجعلنا نفكر، نتأمل، نتساءل."

صمتا مجدداً، يتأملان المشهد أمامهما. كانت النجوم قد بدأت بالظهور في السماء، واحدة تلو الأخرى، حتى امتلأت القبة السماوية بآلاف النقاط المضيئة.

"مهما كانت حقيقة أيوب وقصته،" قال بيومي أخيراً، "أعتقد أن هذا سيكون فيلماً استثنائياً."

"أتفق معك. لدينا هنا كل عناصر القصة الرائعة - مكان غامض، شخصيات معقدة، أسرار قديمة، بحث عن الحقيقة."

"وثنائي مثالي لرواية هذه القصة،" أضاف بيومي، ملقياً نظرة جانبية على سلمى.

ابتسمت سلمى ابتسامة خجولة. كان هناك شيء في طريقة نظر بيومي إليها، في نبرة صوته، جعلها تشعر بدفء في قلبها. كانت علاقتهما تتطور ببطء منذ بداية الرحلة، تتعمق مع كل يوم يقضيانه معاً في هذا المكان الغريب.

"سنرى ما يخبئه لنا الغد،" قالت أخيراً.

"نعم، سنرى."

وبينما جلسا هناك، تحت سماء البجراوية المرصعة بالنجوم، كان كلاهما يشعر بأن هذه المغامرة قد غيرت شيئاً في داخلهما، فتحت أبواباً كانت مغلقة، أيقظت أسئلة كانت نائمة. وكأن القلادة، بطريقة ما، قد بدأت تفتح بوابات في أرواحهما، حتى قبل أن يلمساها.

في صباح اليوم التالي، استيقظا على صوت طرق خفيف على الباب. كان عثمان، يخبرهما أن أيوب ينتظرهما لتناول الإفطار معه.

توجها إلى خيمة كبيرة نصبت وسط المخيم، كانت تعمل كمطعم ومكان للاجتماعات. كان أيوب جالساً هناك، يرتدي جلباباً أبيض نظيفاً، ويحتسي الشاي بهدوء. بدا منتعشاً ومرتاحاً، كأنه نام نوماً عميقاً وهادئاً.

"صباح الخير!" رحب بهما بابتسامة دافئة. "آمل أنكما نمتما جيداً."

"بشكل مدهش، نعم،" أجاب بيومي، وهو يجلس على وسادة أرضية مقابل أيوب. "رغم كل الأفكار التي تدور في رأسي."

ضحك أيوب. "هذا طبيعي. البجراوية تثير الأفكار والتساؤلات."

تناولوا إفطاراً تقليدياً سودانياً - خبز الكسرة الطازج، الفول المدمس، الجبنة البيضاء، العسل، والشاي المعطر بالقرفة والهيل. كان الطعام بسيطاً لكنه لذيذ ومشبع، مثالياً ليوم طويل من الاستكشاف.

"اليوم سأريكما مكاناً آخر خاصاً،" قال أيوب بعد انتهائهم من الإفطار. "مكاناً قليلون جداً يعرفونه، حتى من بين السكان المحليين."

ركبوا سيارة الدفع الرباعي، مع عثمان كالعادة خلف المقود، وانطلقوا عبر الصحراء، متجهين شرقاً، بعيداً عن مجموعة الأهرامات الرئيسية. كانت الشمس قد ارتفعت في السماء، والحرارة تزداد تدريجياً، لكن مكيف السيارة وفر لهم راحة مؤقتة من قسوة الطقس الصحراوي.

بعد حوالي ساعة من القيادة عبر تضاريس وعرة، وصلوا إلى منطقة صخرية منعزلة. كانت عبارة عن سلسلة من التلال الصخرية المنخفضة، تبدو عادية للوهلة الأولى. لكن عند الاقتراب، يمكن ملاحظة فتحات صغيرة في الصخور، كأنها مداخل لكهوف.

"هذه مقابر الكهنة،" شرح أيوب. "كانت مخصصة لكهنة المعبد المقدس، الذين كانوا يحملون أسرار الطقوس والمعرفة المقدسة."

توقفت السيارة، ونزلوا جميعاً. كان الهواء ساخناً وجافاً، والصمت مطبقاً باستثناء صوت الريح الخفيفة وهي تمر بين الصخور، محدثة صفيراً خافتاً كأنه همسات أشباح قديمة.

قادهم أيوب نحو إحدى الفتحات الصخرية، التي كانت أكبر قليلاً من البقية. كان المدخل منخفضاً، مما اضطرهم للانحناء أثناء الدخول. أضاء أيوب مصباحاً يدوياً قوياً، كاشفاً عن ممر ضيق ينحدر إلى الأسفل، منحوت في الصخر الصلب.

"احذروا خطواتكم،" حذرهم أيوب. "الأرضية غير مستوية."

تبعوه بحذر، منحنين قليلاً لتجنب اصطدام رؤوسهم بالسقف المنخفض. كان الهواء داخل الكهف بارداً بشكل مفاجئ، ورطباً، مع رائحة ترابية عميقة ورائحة أخرى غريبة - مزيج من البخور القديم والأعشاب الجافة.

بعد حوالي خمسين متراً من النزول التدريجي، اتسع الممر فجأة، مؤدياً إلى غرفة واسعة منحوتة في الصخر. كانت الغرفة مذهلة - جدرانها مغطاة بنقوش ورسومات ملونة، سقفها مزين بنجوم ذهبية على خلفية زرقاء داكنة، وفي وسطها تابوت حجري ضخم، منقوش بكتابات ورموز غريبة.

أضاء أيوب مشاعل كانت موضوعة في حوامل على الجدران، مما ملأ الغرفة بضوء ذهبي متراقص، أضفى حياة على النقوش والرسومات القديمة.

"هذه مقبرة الكاهن الأعظم أمنحوتب،" قال أيوب بصوت خافت، مليء بالإجلال. "كان آخر حامل للأسرار السبعة في العصر القديم."

اقترب بيومي وسلمى من الجدران، يتفحصان النقوش والرسومات بانبهار. كانت تصور مشاهد من حياة الكاهن - طقوس دينية، احتفالات، لقاءات مع ملوك وأمراء، رحلات إلى أماكن بعيدة. وفي مشهد مركزي، كان الكاهن يرتدي قلادة تشبه تماماً القلادة التي أراهم إياها أيوب بالأمس.

"القلادة نفسها!" همست سلمى، مشيرة إلى النقش.

"نعم،" أكد أيوب. "قلادة الأسرار السبعة. كانت تنتقل من كاهن أعظم إلى آخر، حاملة معها المعرفة المقدسة والقوة الروحية."

اقترب أيوب من التابوت الحجري، ومرر يده برفق على النقوش التي تغطي سطحه. "هذه نصوص مقدسة، تصف رحلة الروح بعد الموت، وكيفية عبور البوابات السبع للعوالم العليا."

كان بيومي يلتقط صوراً للمقبرة بكاميرته، محاولاً توثيق كل تفصيل، كل نقش، كل رسم. كانت هذه مادة مذهلة لفيلمه، كنز أثري وثقافي لم يسبق توثيقه من قبل.

"هل يعرف علماء الآثار عن هذا المكان؟" سأل بيومي.

هز أيوب رأسه نفياً. "لا. هذا المكان ظل سراً عائلياً لقرون. نحن، أحفاد الكهنة القدماء، نحمي هذه الأسرار ونحافظ عليها."

"لكنك تظهرها لنا الآن. لماذا؟"

ابتسم أيوب ابتسامة غامضة. "لأن الوقت قد حان. العالم يحتاج لمعرفة هذه الأسرار، لكن بطريقة صحيحة، من خلال أشخاص مختارين بعناية."

كان هناك شيء في طريقة حديث أيوب، في نظرة عينيه، جعل بيومي يشعر بأنه وسلمى لم يختارا لهذا المشروع بشكل عشوائي. كان هناك سبب، خطة، قدر ربما.

قضوا ساعات في استكشاف المقبرة، يدرسون النقوش، يلتقطون الصور، يستمعون إلى شروحات أيوب عن الرموز والطقوس والمعتقدات القديمة. كان أيوب بحراً من المعرفة، يتحدث بطلاقة وعمق عن تفاصيل دقيقة في الثقافة الكوشية والمعتقدات الصوفية التي تطورت حولها.

في طريق العودة إلى المخيم، كان بيومي وسلمى صامتين، يحاولان استيعاب كل ما رأياه وسمعاه. كان المشروع يتخذ أبعاداً جديدة، يتجاوز فكرة الفيلم الوثائقي التقليدي إلى شيء أعمق، أكثر روحانية، أكثر شخصية.

"غداً سنزور مكاناً آخر،" قال أيوب. "مكاناً أكثر خصوصية. وهناك، سأخبركما بالقصة الكاملة."

في تلك الليلة، لم يستطع بيومي النوم. كان عقله يعمل بسرعة، يحاول ربط كل المعلومات، فهم كل الإشارات، استيعاب كل الأسرار. خرج من الكوخ إلى الهواء الطلق، وجلس على صخرة قريبة، يتأمل الأهرامات تحت ضوء القمر.

كانت الأهرامات تبدو كأشباح فضية في الليل، غامضة، صامتة، تحمل أسرار آلاف السنين في قلبها الحجري. وبينما كان يتأملها، شعر بيومي بشيء يتغير في داخله، كأن بوابة روحية تنفتح ببطء، تسمح له برؤية العالم بطريقة مختلفة، أعمق، أوضح.

"لا تستطيع النوم أيضاً؟"

التفت ليجد سلمى تقف خلفه، ملتفة ببطانية خفيفة لتقيها من برودة الليل الصحراوي. كانت تبدو جميلة تحت ضوء القمر، شعرها الأسود ينساب على كتفيها، عيناها تلمعان بانعكاس النجوم.

"الكثير من الأفكار في رأسي،" اعترف بيومي.

جلست سلمى بجانبه على الصخرة، وشاركته البطانية. كان هناك شيء حميمي في هذه اللحظة، شيء خاص، كأنهما الشخصان الوحيدان في العالم.

"ماذا تعتقد أن أيوب يريد منا حقاً؟" سألت سلمى بصوت خافت.

فكر بيومي للحظات. "أعتقد أنه يريد منا أن نكون شهوداً. شهوداً على شيء أكبر منا، أقدم منا، أعمق منا.بيومي. "نعم. وأنت؟"

ابتسمت سلمى. "طالما أننا معاً في هذا."

وبينما جلسا هناك، تحت سماء البجراوية المرصعة بالنجوم، محاطين بأهرامات صامتة وأسرار قديمة، شعر كلاهما بأن هذه المغامرة قد جمعتهما بطريقة لم يتوقعاها، وأن الأيام القادمة تحمل لهما اكتشافات وتحولات ستغير حياتهما إلى الأبد.

الفصل السابع: البوابة السابعة

في صباح اليوم الثامن من إقامتهما في البجراوية، استيقظ بيومي وسلمى باكراً، متحمسين لما سيكشفه لهما أيوب اليوم. كان قد وعدهما بأن يريهما "المكان الأكثر خصوصية" وأن يخبرهما "القصة الكاملة". كانت توقعاتهما عالية، وفضولهما في ذروته.

تناولا إفطاراً سريعاً، ثم انضما إلى أيوب وعثمان اللذين كانا ينتظرانهما عند سيارة الدفع الرباعي. كان أيوب يرتدي جلباباً أبيض وعمامة سوداء كالمعتاد، لكن كان هناك شيء مختلف في هيئته اليوم - جدية أكبر، تركيز أعمق، كأنه يستعد لحدث مهم.

"إلى أين نحن ذاهبون اليوم؟" سأل بيومي وهو يضع حقيبة معداته في السيارة.

"إلى مكان لم يره أحد من خارج العائلة منذ قرون،" أجاب أيوب بصوت خافت. "إلى البوابة السابعة."

تبادل بيومي وسلمى نظرات متسائلة. البوابة السابعة؟ ما هذا المكان الغامض؟

انطلقت السيارة عبر الصحراء، متجهة هذه المرة نحو الجنوب الغربي، بعيداً عن مجموعة الأهرامات الرئيسية وعن مقابر الكهنة التي زاروها بالأمس. كانت الرحلة أطول هذه المرة، استغرقت حوالي ساعتين من القيادة عبر تضاريس صحراوية قاسية - كثبان رملية شاهقة، وديان صخرية جافة، سهول حصوية متربة.

"هل هناك أحد يعيش في هذه المنطقة؟" سألت سلمى، وهي تنظر إلى المشهد القاحل خارج النافذة.

"لا،" أجاب عثمان. "هذه منطقة محرمة. الناس المحليون يتجنبونها. يقولون إنها أرض الأرواح."

"أرض الأرواح؟" كرر بيومي باستغراب.

"نعم. هناك قصص كثيرة عن هذا المكان - أصوات غريبة تُسمع في الليل، أضواء غامضة تُرى من بعيد، أشخاص دخلوا ولم يعودوا أبداً."

كانت كلمات عثمان تحمل مزيجاً من الخوف والاحترام، كأنه يتحدث عن مكان مقدس ومخيف في آن واحد.

"هل تصدق هذه القصص يا عثمان؟" سألت سلمى.

ابتسم عثمان ابتسامة غامضة. "أنا أعرف الحقيقة. وقريباً، ستعرفانها أنتما أيضاً."

بعد ساعتين من القيادة، توقفت السيارة أمام تكوين صخري غريب. كان عبارة عن صخرة ضخمة تنتصب وسط الصحراء، منحوتة بفعل الرياح والزمن لتبدو كأنها بوابة طبيعية - قوس حجري شاهق يفتح على مساحة فارغة من الصحراء.

"وصلنا،" أعلن أيوب.

نزلوا من السيارة، وضربتهم حرارة الصحراء كالسوط. كان الجو حاراً بشكل لا يطاق، والشمس تسطع بقسوة من سماء زرقاء صافية خالية من أي غيمة. لكن هناك شيء غريب في الهواء - برودة خفيفة تتسلل بين موجات الحرارة، كأنها تأتي من مكان آخر، من عالم آخر.

"ما هذا المكان؟" سأل بيومي، وهو يتطلع إلى القوس الصخري الضخم.

"هذه هي البوابة السابعة،" أجاب أيوب. "آخر البوابات السبع التي تحرس أسرار البجراوية."

قادهم أيوب نحو القوس الصخري. كان المشي صعباً على الرمال الساخنة، والعرق يتصبب من وجوههم رغم قبعات الشمس التي يرتدونها. لكن أيوب كان يتحرك بخفة وثقة، كأنه يعرف هذا المكان جيداً، كأنه جزء منه.

عندما وصلوا إلى القوس، توقف أيوب وأشار إلى نقوش خفية على الصخر. كانت رموزاً غريبة، مشابهة لتلك التي رأوها على القلادة وفي مقبرة الكاهن، لكنها أكثر تعقيداً، أكثر غموضاً.

"هذه رموز البوابات السبع،" شرح أيوب. "كل رمز يمثل بوابة، وكل بوابة تمثل مرحلة من مراحل المعرفة والوعي."

مرر أيوب أصابعه على النقوش برفق، كأنه يقرأها بلمسه. "البوابة الأولى هي بوابة الجسد، الثانية هي بوابة العقل، الثالثة هي بوابة القلب، الرابعة هي بوابة الروح، الخامسة هي بوابة الزمن، السادسة هي بوابة المكان، والسابعة... السابعة هي بوابة الوجود نفسه."

كانت كلمات أيوب تحمل عمقاً فلسفياً غريباً، كأنه يتحدث عن مفاهيم تتجاوز الفهم العادي، تتجاوز حدود اللغة والمنطق.

"وماذا يوجد خلف البوابة السابعة؟" سألت سلمى بصوت خافت، كأنها تخشى الإجابة.

ابتسم أيوب ابتسامة غامضة. "تعالوا وانظروا بأنفسكم."

قادهم عبر القوس الصخري، إلى مساحة صغيرة محاطة بصخور عالية من ثلاث جهات، مفتوحة على الصحراء من الجهة الرابعة. كان المكان يشبه فناءً طبيعياً، محمياً من الرياح والرمال، مع أرضية صخرية مستوية نسبياً.

وفي وسط هذا الفناء الصخري، كان هناك شيء غريب - دائرة من الأحجار السوداء، مرتبة بدقة، وفي مركزها حجر أكبر، منتصب كعمود قصير، منقوش برموز مشابهة لتلك التي على القوس.

"هذا هو مركز البوابة السابعة،" قال أيوب. "المكان الذي تلتقي فيه العوالم."

جلس أيوب على الأرض الصخرية، مشيراً لبيومي وسلمى بالجلوس قبالته. جلس عثمان قليلاً إلى الخلف، في وضع المراقب الصامت.

"حان الوقت لأخبركما القصة الكاملة،" قال أيوب، صوته يحمل وقاراً وعمقاً لم يلاحظاه من قبل. "قصة عائلتي، قصة البجراوية، قصة الأسرار السبعة."

أخرج أيوب من جيبه الصندوق الخشبي الصغير الذي رأياه في الغرفة السرية داخل الهرم. فتحه ببطء، وأخرج منه القلادة الذهبية. في ضوء الشمس المباشر، بدت القلادة أكثر تألقاً، أكثر غموضاً، الرموز المنقوشة عليها تبدو كأنها تتحرك وتتغير مع تغير زاوية الضوء.

"هذه القلادة،" بدأ أيوب، "صنعها كاهن أعظم من كهنة آمون، قبل أكثر من ثلاثة آلاف عام. كان اسمه نفرحوتب، وكان من أعظم العارفين بأسرار الكون والوجود."

توقف أيوب للحظات، كأنه يستجمع أفكاره، ثم تابع: "نفرحوتب اكتشف أن هناك سبعة أسرار أساسية تحكم الوجود - سر الحياة، سر الموت، سر الزمن، سر المكان، سر الوعي، سر الروح، وسر الخلود. وأدرك أن هذه الأسرار مترابطة، متداخلة، لا يمكن فهم أحدها دون فهم البقية."

كان بيومي وسلمى يستمعان بانتباه شديد، منجذبين إلى قصة أيوب رغم غرابتها، رغم تجاوزها لحدود المنطق والعلم الذي يعرفانه.

"صنع نفرحوتب هذه القلادة لتكون مفتاحاً للأسرار السبعة. نقش عليها رموزاً خاصة، ووضع في مركزها حجراً سماوياً - حجراً سقط من السماء، من النجوم البعيدة."

رفع أيوب القلادة، فلمعت في ضوء الشمس، الحجر الأزرق في مركزها يشع بلون غريب، عميق، كأنه يحتوي على محيط كامل في داخله.

"القلادة ليست مجرد قطعة من الذهب والأحجار. إنها أداة، وسيلة، بوابة. تسمح لحاملها برؤية ما لا يُرى، بفهم ما لا يُفهم، بالوصول إلى مستويات من الوعي والمعرفة تتجاوز قدرات البشر العاديين."

"وكيف انتقلت القلادة إليك؟" سأل بيومي.

"عبر سلسلة طويلة من الحراس والأوصياء. من نفرحوتب إلى تلميذه، ومن التلميذ إلى من بعده، جيلاً بعد جيل، عبر آلاف السنين. كانت تنتقل دائماً إلى الشخص المناسب، في الوقت المناسب، بطريقة تبدو أحياناً كأنها من تدبير القدر نفسه."

"وكيف وصلت إلى عائلتك تحديداً؟" سألت سلمى.

ابتسم أيوب. "جدي، عمر محمود، كان عالم آثار وباحثاً في التصوف، كما أخبرتكما. لكن ما لم أخبركما به هو أنه كان أيضاً آخر سليل لسلالة قديمة من كهنة آمون. سلالة ظلت تحمي الأسرار السبعة عبر العصور، متخفية أحياناً، معلنة أحياناً أخرى، لكنها دائماً وفية لمهمتها المقدسة."

"وما هي هذه المهمة المقدسة؟" سأل بيومي.

"حماية المعرفة. الحفاظ على الحكمة القديمة. منع الأسرار من الضياع أو الوقوع في الأيدي الخطأ. والأهم من ذلك، نقل هذه المعرفة إلى الجيل التالي، إلى الأشخاص المناسبين، في الوقت المناسب."

صمت أيوب للحظات، ثم نظر مباشرة إلى عيني بيومي وسلمى، نظرة عميقة، نافذة، كأنه يرى شيئاً في داخلهما لا يرونه هما أنفسهما.

"وهذا هو سبب وجودكما هنا اليوم."

شعر بيومي بقشعريرة تسري في جسده. "ماذا تقصد؟"

"أنتما لستما هنا بالصدفة. لم أختَرْكما لهذا المشروع بشكل عشوائي. القلادة... القلادة هي التي اختارتكما."

"القلادة اختارتنا؟" كررت سلمى بدهشة. "كيف يمكن لقطعة من الذهب أن تختار أشخاصاً؟"

"القلادة ليست مجرد قطعة من الذهب، كما قلت. إنها تحمل وعياً خاصاً، ذكاءً قديماً، قدرة على التواصل مع من هم مستعدون لتلقي المعرفة."

كان كلام أيوب يزداد غرابة، يتجاوز حدود المعقول والمقبول. لكن هناك شيء في طريقة حديثه، في نظرة عينيه، في الثقة العميقة التي تشع منه، جعل بيومي وسلمى يستمران في الاستماع، في محاولة الفهم.

"عندما رأيت صورك في معرضك يا بيومي، عرفت على الفور. كانت لديك العين - العين التي ترى ما لا يراه الآخرون، العين التي تلتقط الحقيقة وراء المظاهر. وعندما قابلتك، وقابلت سلمى، تأكدت. أنتما الاثنان تحملان الاستعداد، القدرة، الرغبة في المعرفة الحقيقية."

"لكن لماذا نحن؟" سأل بيومي. "ما الذي يجعلنا مختلفين عن الآخرين؟"

"لا أعرف بالضبط. القلادة لها طرقها الخاصة في الاختيار. ربما هو شيء في روحيكما، في تاريخكما، في مصيركما. ربما هو مزيج من كل ذلك."

وضع أيوب القلادة على الحجر المنتصب في وسط دائرة الأحجار السوداء. بدأت القلادة تلمع بشكل غريب، الحجر الأزرق في مركزها يشع بضوء خافت، نابض، كأنه ينبض بالحياة.

"الآن، حان الوقت للخطوة التالية. حان الوقت لكما أن تريا بأنفسكما."

"نرى ماذا؟" سألت سلمى بصوت مرتجف قليلاً.

"الحقيقة. الحقيقة وراء الحجاب."

أشار أيوب لهما بالاقتراب من الحجر والقلادة. تردد بيومي وسلمى للحظة، ثم تقدما ببطء، مدفوعين بفضول لا يقاوم، بجاذبية غريبة تسحبهما نحو هذا الشيء الغامض.

"ضعا يديكما على القلادة،" أمرهما أيوب بصوت هادئ، واثق.

مد بيومي وسلمى يديهما ببطء، وبتردد، ثم لمسا القلادة في نفس اللحظة.

وفي تلك اللحظة، حدث شيء غريب، شيء لا يمكن تفسيره بالمنطق أو العلم. شعر بيومي وسلمى بموجة من الطاقة تسري من القلادة إلى أيديهما، ثم إلى أجسادهما بالكامل. كانت طاقة غريبة، ليست كهربائية، ليست حرارية، بل شيء آخر تماماً - طاقة واعية، ذكية، كأنها تتواصل معهما على مستوى أعمق من الكلمات واللغة.

وفجأة، تغير العالم من حولهما. الصحراء، الصخور، السماء، كل شيء بدأ يتلاشى، يتحول، يتبدل. وجدا نفسيهما في مكان آخر، أو ربما في نفس المكان لكن في زمن آخر، أو في بُعد آخر.

كانا يقفان الآن في وسط معبد ضخم، مهيب، أعمدته العملاقة ترتفع عالياً نحو سقف مزين بنجوم ذهبية على خلفية زرقاء داكنة. كان المعبد مليئاً بالناس - كهنة يرتدون ملابس بيضاء، حراس بدروع ذهبية، عامة الناس في ملابس بسيطة. الجميع منهمكون في طقوس معقدة، يتحركون بانتظام، يرددون تراتيل بلغة قديمة، يحملون قرابين وهدايا.

وفي مركز المعبد، على منصة عالية، كان هناك رجل يرتدي رداءً أبيض مطرزاً بخيوط ذهبية، وعلى صدره تتدلى قلادة - نفس القلادة التي لمساها للتو.

"هذا هو نفرحوتب،" همس صوت أيوب، رغم أنهما لم يريا أيوب نفسه. "الكاهن الأعظم، صانع القلادة، حامل الأسرار السبعة."

كان المشهد واضحاً بشكل مذهل، حياً، واقعياً، كأنهما يعيشان فيه فعلاً، وليس مجرد رؤية أو حلم. يمكنهما سماع الأصوات، شم الروائح - البخور العطري، زيت الزيتون المعطر، عرق الناس المتجمعين. يمكنهما الشعور بحرارة الشموع والمشاعل، برطوبة الهواء، بنسيم خفيف يتسلل من نوافذ المعبد العالية.

ثم تغير المشهد مرة أخرى. وجدا نفسيهما الآن في غرفة صغيرة، مضاءة بمشاعل خافتة. كان نفرحوتب جالساً على الأرض، يعمل بتركيز شديد على شيء أمامه - القلادة، في مراحلها الأولى من الصنع.

"كان يعمل على القلادة لسبع سنوات،" همس صوت أيوب. "يصوغها، ينقشها، يشحنها بالطاقة والمعرفة. كان يعلم أنها ستكون جسراً بين العوالم، بين الأزمنة، بين مستويات الوعي."

تغير المشهد مرة أخرى، وأخرى، وأخرى. رأيا القلادة تنتقل من شخص إلى آخر عبر العصور - من كاهن إلى تلميذه، من حكيم إلى وريثه، من حارس إلى حارس. رأيا كيف كانت تؤثر في حامليها، كيف كانت تفتح لهم آفاقاً جديدة من المعرفة والفهم، كيف كانت تقودهم إلى اكتشافات وإنجازات استثنائية.

ثم رأيا جد أيوب، عمر محمود، يكتشف القلادة في البجراوية عام 1937. رأيا دهشته، انبهاره، ثم فهمه التدريجي لما اكتشفه. رأيا كيف غيرت القلادة حياته، كيف فتحت له أبواباً من المعرفة والفهم لم يكن يتخيلها.

وأخيراً، رأيا أيوب نفسه، شاباً في العشرينات، يتلقى القلادة من جده المسن. رأيا كيف تعلم أسرارها، كيف فهم مسؤوليته كحارس جديد للأسرار السبعة، كيف قرر أن يكرس حياته للحفاظ على هذه المعرفة ونقلها.

ثم، بنفس السرعة التي بدأت بها، انتهت الرؤية. وجد بيومي وسلمى نفسيهما مرة أخرى في الفناء الصخري، جالسين أمام أيوب، يديهما ما زالتا على القلادة، التي توقفت الآن عن التوهج والنبض.

كان الصمت مطبقاً. حتى الريح توقفت، كأن الطبيعة نفسها تحبس أنفاسها في هذه اللحظة المقدسة.

"الآن تعرفان،" قال أيوب أخيراً، صوته هادئ، عميق. "الآن تفهمان."

سحب بيومي وسلمى يديهما ببطء عن القلادة، عيونهما متسعة من الدهشة والصدمة. كان ما رأياه يتجاوز كل ما يمكن تفسيره بالمنطق أو العلم، يتجاوز كل ما اعتقدا أنه ممكن أو حقيقي.

"كيف... كيف حدث هذا؟" سأل بيومي بصوت مرتجف.

"القلادة،" أجاب أيوب ببساطة. "القلادة تحمل ذاكرة كل من حملها، كل ما رأوه، كل ما عرفوه. وهي قادرة على مشاركة هذه الذاكرة مع من هم مستعدون لتلقيها."

"لكن هذا... هذا مستحيل،" قالت سلمى. "يتعارض مع كل ما نعرفه عن العلم والفيزياء والواقع."

ابتسم أيوب. "العلم الذي نعرفه هو مجرد فهمنا المحدود للواقع. الواقع نفسه أكبر، أعمق، أكثر تعقيداً مما يمكن لعقولنا المحدودة استيعابه. القلادة تفتح نافذة على هذا الواقع الأكبر، تسمح لنا بلمحة من الصورة الكاملة."

أعاد أيوب القلادة إلى الصندوق الخشبي، وأغلقه بعناية. "ما رأيتماه اليوم هو مجرد البداية. هناك المزيد، الكثير المزيد. لكن يجب أن يأتي تدريجياً، خطوة بخطوة. العقل البشري لا يستطيع استيعاب كل شيء دفعة واحدة."

"وما هو دورنا في كل هذا؟" سأل بيومي. "لماذا أظهرت لنا كل هذا؟"

نظر أيوب إليهما بعمق، عيناه تحملان مزيجاً من الجدية والأمل. "لأنكما الجيل التالي. الحراس الجدد للأسرار السبعة."

صمت بيومي وسلمى، مصدومين من هذا الإعلان المفاجئ. هم، حراس الأسرار السبعة؟ كيف يمكن لهما، شابان عاديان من القاهرة، أن يحملا مسؤولية كهذه؟

"لكننا... لكننا مجرد مصور وكاتبة،" قالت سلمى أخيراً. "لسنا كهنة أو حكماء أو علماء."

"وهذا بالضبط ما يجعلكما مثاليين،" أجاب أيوب. "أنتما تريان العالم بعيون مختلفة، تفهمانه بطريقة مختلفة. الفن، الأدب، السينما - هذه هي لغة العصر الحديث. هذه هي الطريقة التي يمكن بها نقل المعرفة القديمة إلى العالم المعاصر."

"وهذا هو سبب الفيلم الوثائقي؟" سأل بيومي، بدأت الصورة تتضح في ذهنه. "ليس مجرد توثيق للآثار، بل وسيلة لنقل... هذه المعرفة؟"

"بالضبط. الفيلم سيكون البداية فقط. بوابة تفتح عقول الناس، تثير فضولهم، تدفعهم للتساؤل والبحث. ومن بينهم، سيظهر من هم مستعدون للخطوة التالية، من هم قادرون على حمل جزء من الأسرار السبعة."

كان ما يقوله أيوب يبدو جنونياً، خيالياً، مستحيلاً. لكن بعد ما رأياه للتو، بعد التجربة التي مرا بها مع القلادة، لم يعد بإمكانهما رفض أي شيء كمستحيل.

"وماذا لو رفضنا؟" سأل بيومي، ليس لأنه يريد الرفض، بل لأنه يريد فهم حدود حريتهما في هذا الأمر.

"لديكما الحرية الكاملة في الرفض،" أجاب أيوب بهدوء. "القلادة لا تفرض نفسها على أحد. المعرفة لا تُفرض، بل تُقدم لمن هم مستعدون لها. إذا اخترتما الرفض، ستعودان إلى حياتكما العادية، وستبقى ذكرى ما رأيتماه هنا كحلم غريب، سرعان ما سيتلاشى مع الوقت."

صمت بيومي وسلمى، يفكران في كلمات أيوب، في التجربة التي مرا بها، في المسؤولية الهائلة التي تُعرض عليهما.

"نحتاج وقتاً للتفكير،" قالت سلمى أخيراً.

"بالطبع،" وافق أيوب. "خذا كل الوقت الذي تحتاجانه. القرار يجب أن يأتي من أعماقكما، بقناعة كاملة، بإرادة حرة."

نهض أيوب، حاملاً الصندوق الخشبي بعناية. "لنعد إلى المخيم الآن. الشمس ستغرب قريباً، والصحراء خطيرة في الليل."

عادوا إلى السيارة في صمت، كل منهم غارق في أفكاره. كانت الشمس تميل نحو الغروب، ملقية بألوانها الذهبية والبرتقالية على الصحراء، محولة إياها إلى بحر من النار السائلة.

في طريق العودة، كان بيومي وسلمى صامتين، ينظران إلى المشهد الصحراوي خارج النافذة دون أن يرياه حقاً. كانت عقولهما مشغولة بما رأياه، بما سمعاه، بالقرار الذي يجب عليهما اتخاذه.

وصلوا إلى المخيم مع غروب الشمس. كان الظلام قد بدأ يخيم على البجراوية، والنجوم الأولى تظهر في السماء الشرقية. ودعهم أيوب عند مدخل كوخهما، قائلاً إنه سيراهما في الصباح، وأنه يحترم أي قرار سيتخذانه.

دخل بيومي وسلمى إلى الكوخ، وجلسا في صمت للحظات، كل منهما يحاول استيعاب ما حدث، ترتيب أفكاره، فهم مشاعره.

"ماذا تعتقد؟" سألت سلمى أخيراً، صوتها خافت، متردد.

تنهد بيومي. "لا أعرف. جزء مني يقول إن هذا جنون، خيال، وهم. لكن جزءاً آخر... جزءاً آخر يعرف أن ما رأيناه كان حقيقياً، أن ما شعرنا به كان حقيقياً."

"أشعر بالشيء نفسه. كأن عالمي انقلب رأساً على عقب. كل ما كنت أعتقد أنني أعرفه، كل ما كنت أؤمن به، يبدو الآن محدوداً، سطحياً، غير كافٍ."

"وماذا عن عرض أيوب؟ أن نصبح... حراساً للأسرار السبعة؟"

ابتسمت سلمى ابتسامة متوترة. "يبدو كشيء من فيلم خيال علمي، أليس كذلك؟ أو رواية فانتازيا. لكن..."

"لكن ماذا؟"

"لكنني أشعر بشيء غريب، بيومي. أشعر كأن هذا... صحيح. كأنه ما كنت أبحث عنه دون أن أعرف. كأنه الغرض الذي طالما افتقدته في حياتي."

نظر بيومي إليها بعمق، ورأى في عينيها انعكاساً لما يشعر به هو نفسه - مزيجاً من الخوف والحماس، من الشك واليقين، من التردد والعزم.

"أشعر بالشيء نفسه،" اعترف أخيراً. "منذ وصولنا إلى البجراوية، وأنا أشعر بشيء يتغير في داخلي. كأنني أستيقظ من نوم طويل، أرى العالم بوضوح للمرة الأولى."

"إذن... هل نقبل؟"

فكر بيومي للحظات. "أعتقد أننا بحاجة إلى معرفة المزيد. فهم ما تعنيه هذه المسؤولية بالضبط، ما هو مطلوب منا، كيف سيؤثر ذلك على حياتنا."

"أتفق معك. سنتحدث مع أيوب غداً، نطرح عليه كل أسئلتنا، ثم نتخذ قرارنا."

خرجا من الكوخ إلى الهواء الطلق. كان الليل قد خيم بالكامل على البجراوية، والسماء مرصعة بآلاف النجوم، تشع بضوء فضي خافت يلقي ظلالاً غريبة على الأهرامات البعيدة.

جلسا على صخرة قريبة، متلاصقين قليلاً بسبب برودة الليل الصحراوي. كان هناك شيء حميمي في هذه اللحظة، شيء خاص، كأنهما الشخصان الوحيدان في العالم.

"مهما كان قرارنا،" قال بيومي، وهو يمسك يد سلمى برفق، "أنا سعيد أننا في هذا معاً."

ابتسمت سلمى، وضغطت على يده. "وأنا أيضاً."

وبينما جلسا هناك، تحت سماء البجراوية المرصعة بالنجوم، محاطين بأهرامات صامتة وأسرار قديمة، شعر كلاهما بأن حياتهما على وشك أن تتغير إلى الأبد، وأن

البوابة السابعة قد فُتحت لهما، تدعوهما إلى عالم من الاحتمالات والأسرار لم يكونا يتخيلانه من قبل.

الفصل الثامن: القرار

استيقظ بيومي مع شروق الشمس، بعد ليلة من النوم المتقطع والأحلام الغريبة. كانت أشعة الشمس الأولى تتسلل عبر النافذة الصغيرة للكوخ، راسمة أنماطاً ذهبية على الأرضية الترابية. خارج النافذة، كانت البجراوية تستيقظ ببطء - طيور صغيرة تزقزق بين أشجار النخيل القليلة، نسيم صباحي خفيف يحمل رائحة الصحراء النقية، أصوات بعيدة لعمال محليين يبدؤون يومهم.

جلس بيومي على حافة السرير، يفرك عينيه، محاولاً ترتيب أفكاره المتشابكة. كانت أحداث الأمس تبدو كحلم بعيد - البوابة السابعة، القلادة، الرؤى الغريبة، عرض أيوب أن يصبحا حارسين للأسرار السبعة. هل كان كل ذلك حقيقياً؟ أم مجرد وهم، خيال، نتيجة للحرارة الشديدة والإرهاق والانبهار بغموض المكان؟

نهض ببطء، وخرج إلى الشرفة الصغيرة للكوخ. كانت البجراوية في الصباح الباكر تبدو مختلفة تماماً عنها في أي وقت آخر - هادئة، صافية، متوهجة بضوء ذهبي ناعم. الأهرامات البعيدة تنتصب بصمت وكبرياء، ظلالها الطويلة تمتد على الرمال كأصابع عملاقة تشير إلى الماضي السحيق. الصحراء المحيطة تمتد إلى ما لا نهاية، ذهبية، متموجة، كبحر متجمد من الضوء.

"صباح الخير."

التفت ليجد سلمى تقف في باب الشرفة، ترتدي قميصاً فضفاضاً وبنطالاً واسعاً، شعرها مربوط بشكل غير متقن، وعلى وجهها ابتسامة هادئة رغم الإرهاق البادي في عينيها.

"صباح النور. هل نمتِ جيداً؟"

هزت سلمى رأسها نفياً. "بالكاد. كنت أفكر طوال الليل."

"وأنا أيضاً."

وقفا جنباً إلى جنب، يتأملان المشهد أمامهما. كان هناك شيء مهدئ في هذا المنظر الصباحي، شيء يبعث على السكينة والتأمل، يساعد على ترتيب الأفكار وتصفية الذهن.

"هل توصلت إلى قرار؟" سألت سلمى بعد لحظات من الصمت.

تنهد بيومي. "لا أعرف. جزء مني متشكك، يقول إن هذا كله جنون، وهم، خيال. لكن جزءاً آخر... جزءاً آخر يشعر بأن هناك حقيقة عميقة في كل هذا، حقيقة تتجاوز ما يمكن تفسيره بالمنطق العادي."

"أشعر بالشيء نفسه. كأنني أقف على حافة، أنظر إلى عالم جديد تماماً، عالم لم أكن أعرف بوجوده. جزء مني خائف من القفز، وجزء آخر... متلهف."

صمتا مجدداً، كل منهما غارق في أفكاره. كان القرار الذي يواجهانه ليس سهلاً - قبول عرض أيوب يعني تغييراً جذرياً في حياتهما، في فهمهما للعالم، في مسار مستقبلهما. لكن رفضه يعني العودة إلى حياتهما العادية، حاملين معهما معرفة وتجربة قد تطاردهما للأبد.

"أعتقد أننا بحاجة إلى المزيد من المعلومات،" قال بيومي أخيراً. "نحتاج أن نفهم بالضبط ما يعنيه أن نكون 'حراساً للأسرار السبعة'. ما هي مسؤولياتنا؟ كيف سيؤثر ذلك على حياتنا؟ ما هي المخاطر؟"

"أتفق معك. لنتحدث مع أيوب، نطرح عليه كل أسئلتنا، ثم نتخذ قرارنا."

بعد الإفطار، التقيا بأيوب في خيمة كبيرة نصبت وسط المخيم. كان أيوب جالساً على سجادة مفروشة على الأرض، يحتسي الشاي بهدوء، وأمامه الصندوق الخشبي الصغير الذي يحتوي على القلادة. كان يرتدي جلباباً أبيض بسيطاً، وعلى رأسه عمامة سوداء، وفي عينيه نظرة هادئة، متفهمة، كأنه يعرف بالضبط ما يدور في ذهنيهما.

"صباح الخير،" رحب بهما بابتسامة دافئة. "آمل أنكما نمتما جيداً."

"ليس تماماً،" اعترف بيومي وهو يجلس على السجادة مقابل أيوب. "كان لدينا الكثير من الأفكار والأسئلة."

"وهذا طبيعي تماماً. ما رأيتماه بالأمس ليس بالأمر البسيط. يحتاج إلى وقت للاستيعاب والفهم."

"لدينا أسئلة كثيرة،" قالت سلمى، وهي تجلس بجانب بيومي.

"وأنا هنا للإجابة عليها. اسألا ما شئتما."

تبادل بيومي وسلمى نظرة سريعة، ثم بدأ بيومي: "ما الذي يعنيه بالضبط أن نكون 'حراساً للأسرار السبعة'؟ ما هي مسؤولياتنا؟ ما الذي سيتوجب علينا فعله؟"

ابتسم أيوب. "سؤال جيد. دور الحارس يتكون من ثلاثة جوانب أساسية: الحفاظ، الفهم، النقل."

أخذ رشفة من الشاي، ثم تابع: "الحفاظ يعني حماية المعرفة من الضياع أو التحريف. الحفاظ على القلادة نفسها، على النصوص والوثائق المرتبطة بها، على المواقع المقدسة مثل البوابة السابعة."

"الفهم يعني السعي المستمر لاستيعاب الأسرار السبعة بشكل أعمق. هذه ليست معرفة ثابتة يمكن تعلمها مرة واحدة، بل رحلة مستمرة من الاكتشاف والفهم المتجدد. كل حارس يضيف إلى فهمه الخاص، يكتشف جوانب جديدة، يعمق معرفته بطريقته الخاصة."

"النقل يعني إيصال هذه المعرفة إلى الآخرين، بطريقة مناسبة لعصرهم وفهمهم. ليس بالضرورة نقل كل شيء لكل شخص، بل اختيار ما يمكن مشاركته، ومع من، وكيف. وفي النهاية، اختيار الحراس الجدد عندما يحين الوقت."

"وكيف سيؤثر ذلك على حياتنا اليومية؟" سألت سلمى. "هل سنضطر للعيش هنا في البجراوية؟ هل سنترك عملنا، أصدقاءنا، عائلاتنا؟"

هز أيوب رأسه نفياً. "لا، على الإطلاق. الحراس عبر التاريخ عاشوا حياة طبيعية في معظم الأحيان. كانوا معلمين، فنانين، علماء، تجاراً، حرفيين. العيش في العالم، التفاعل معه، فهمه، هو جزء أساسي من دور الحارس."

"ستعودان إلى القاهرة، ستستمران في عملكما، في حياتكما العادية. لكن ستحملان معكما معرفة جديدة، رؤية جديدة، مسؤولية جديدة. وستعودان إلى البجراوية من وقت لآخر، للتعلم، للتأمل، لإجراء طقوس معينة في أوقات محددة من السنة."

"وماذا عن المخاطر؟" سأل بيومي. "هل هناك من يريد هذه المعرفة لأغراض سيئة؟ هل سنكون في خطر؟"

أصبح وجه أيوب أكثر جدية. "المعرفة دائماً تجذب من يريدون استغلالها. عبر التاريخ، كان هناك من سعوا للحصول على الأسرار السبعة لأغراض أنانية، للسلطة، للثروة، للسيطرة. لكن القلادة نفسها تحمي نفسها - لا يمكن استخدامها إلا من قبل من هم مستعدون حقاً، من يحملون النية الصافية."

"لكن نعم، هناك مخاطر. ليست مخاطر جسدية بالضرورة، بل مخاطر روحية، نفسية. المعرفة العميقة يمكن أن تكون ثقيلة، مربكة، مزعزعة للثوابت. يمكن أن تغير نظرتكما للعالم، لأنفسكما، للآخرين. وهذا التغيير ليس سهلاً دائماً."

صمت بيومي وسلمى، يفكران في كلمات أيوب. كان ما يقوله منطقياً، صادقاً، لكنه أيضاً مخيفاً بطريقة ما. المعرفة العميقة تحمل مسؤولية عميقة، والرؤية الواضحة ليست دائماً مريحة.

"وماذا عن الفيلم الوثائقي؟" سأل بيومي بعد لحظات. "هل سنستمر في العمل عليه؟"

"بالطبع. الفيلم سيكون جزءاً من دوركما كحراس. وسيلة لنقل جزء من المعرفة، بطريقة يمكن للعالم المعاصر فهمها واستيعابها. لكن الفيلم سيكون مختلفاً عما كنتما تتخيلانه في البداية - أعمق، أكثر شخصية، أكثر تأثيراً."

"وماذا عن القلادة نفسها؟" سألت سلمى. "هل سنحملها معنا؟"

هز أيوب رأسه. "القلادة ستبقى هنا، في البجراوية، محفوظة في مكانها المقدس. ستأتيان إليها عندما تحتاجان إليها، عندما تكونان مستعدين للمزيد من المعرفة، من الفهم."

"لكنكما ستحملان معكما هذا."

فتح أيوب الصندوق الخشبي، وأخرج منه شيئين صغيرين - قلادتين فضيتين بسيطتين، كل منهما تحمل نسخة مصغرة من الرمز السباعي المنقوش على القلادة الأصلية.

"هذه رموز الحراس. تربطكما بالقلادة الأصلية، تذكركما بمسؤوليتكما، تساعدكما على التركيز والتأمل. ليست قوية مثل القلادة الأصلية، لكنها تحمل جزءاً صغيراً من طاقتها."

ناول كل منهما قلادة، وشعر بيومي وسلمى بدفء غريب ينبعث منها، كأنها حية، واعية، تتواصل معهما بطريقة خفية.

"خذا وقتكما للتفكير،" قال أيوب. "هذا قرار مهم، لا ينبغي اتخاذه بتسرع. سأترككما الآن، وسألتقي بكما مجدداً في المساء."

نهض أيوب، وغادر الخيمة، تاركاً بيومي وسلمى وحدهما مع أفكارهما، مع القلادتين الفضيتين في أيديهما، مع قرار سيغير حياتهما إلى الأبد.

قضيا الساعات التالية في التجول حول البجراوية، يتحدثان، يفكران، يزنان الخيارات. تسلقا تلة صغيرة تطل على الأهرامات، وجلسا هناك، يتأملان المشهد الخلاب أمامهما.

كانت البجراوية في ضوء النهار تبدو كمدينة أسطورية من عالم آخر - الأهرامات المدببة تنتصب بكبرياء وسط الصحراء الذهبية، أطلال المعابد والقصور تمتد حولها كشواهد صامتة على عظمة الماضي، النيل البعيد يلمع كشريط فضي يشق الأرض القاحلة، واحات خضراء صغيرة تتناثر هنا وهناك كجزر من الحياة وسط بحر من الرمال.

"هذا المكان يذكرني بشيء قرأته مرة،" قالت سلمى، وهي تتأمل المشهد. "أن هناك أماكن في العالم تكون فيها الحدود بين العوالم رقيقة، حيث يمكن للمرء أن يشعر بأنفاس عالم آخر، أن يلمح لمحات من حقيقة أكبر."

"وهل تعتقدين أن البجراوية مكان كهذا؟"

"بعد ما رأيناه بالأمس... نعم، أعتقد ذلك."

صمتا للحظات، ثم سأل بيومي: "ماذا ستفعلين؟ هل ستقبلين عرض أيوب؟"

نظرت سلمى إلى القلادة الفضية في يدها، تتأمل الرمز السباعي المنقوش عليها.

"أعتقد... أعتقد أنني سأقبل. ليس لأنني مقتنعة تماماً بكل ما قاله أيوب، بل لأنني أشعر بأن هناك شيئاً حقيقياً، مهماً، في كل هذا. شيئاً يستحق الاستكشاف، الفهم، الحماية."

"وأنت؟"

فكر بيومي للحظات. "طوال حياتي، كنت أبحث عن شيء أكبر، أعمق، من الحياة اليومية العادية. كنت أبحث عن معنى، عن غرض، عن حقيقة. وأشعر أن هذا... قد يكون ما كنت أبحث عنه دون أن أعرف."

"إذن، نحن متفقان؟"

ابتسم بيومي. "يبدو ذلك."

تبادلا نظرة طويلة، عميقة، مليئة بالفهم المتبادل، بالثقة، بالعزم المشترك. كانا يدركان أن هذا القرار سيغير حياتهما إلى الأبد، لكنهما كانا مستعدين لهذا التغيير، متلهفين له حتى.

في المساء، التقيا بأيوب مجدداً، هذه المرة عند البوابة السابعة. كان المكان يبدو مختلفاً في ضوء الغروب - القوس الصخري يلقي ظلالاً طويلة على الرمال، الصخور تتوهج بلون برتقالي ذهبي، الهواء يحمل برودة خفيفة تبشر بليلة صحراوية باردة.

كان أيوب ينتظرهما هناك، جالساً في وسط دائرة الأحجار السوداء، عيناه مغمضتان، كأنه في حالة تأمل عميق. عندما اقتربا، فتح عينيه ببطء، وابتسم لهما ابتسامة هادئة، متفهمة.

"لقد اتخذتما قراركما،" قال، وكانت عبارة، وليست سؤالاً.

"نعم،" أجاب بيومي. "نقبل عرضك. نريد أن نكون حراساً للأسرار السبعة."

ابتسم أيوب ابتسامة أوسع، وفي عينيه لمعت نظرة من الرضا والارتياح. "قرار حكيم. القلادة اختارت جيداً."

نهض أيوب، وأشار لهما بالجلوس في دائرة الأحجار السوداء. جلس بيومي وسلمى متقابلين، وجلس أيوب بينهما، مشكلين مثلثاً متساوي الأضلاع.

أخرج أيوب الصندوق الخشبي من جيبه، وفتحه ببطء، كاشفاً عن القلادة الذهبية. في ضوء الغروب، بدت القلادة أكثر سحراً، أكثر غموضاً، الرموز المنقوشة عليها تتوهج كأنها مشتعلة من الداخل، الحجر الأزرق في مركزها يشع بلون عميق، غامض، كأنه يحتوي على كون كامل في داخله.

"الآن، سنجري طقس التكريس،" قال أيوب بصوت خافت، مليء بالوقار. "طقس قديم، مارسه الحراس منذ آلاف السنين، ينقل المسؤولية والمعرفة من جيل إلى جيل."

وضع أيوب القلادة على الحجر المنتصب في وسط الدائرة، ثم أخرج من جيبه كيساً صغيراً، وسكب منه مسحوقاً أحمر داكناً حول القلادة، مشكلاً نجمة سباعية.

"هذا مسحوق من أعشاب وبخور مقدس، يجمع بعناية من سبعة أماكن مختلفة في البجراوية. يساعد على فتح العقل والروح، على تسهيل التواصل مع القلادة."

أشعل أيوب المسحوق، الذي بدأ يحترق ببطء، منبعثاً منه دخان عطري خفيف، له رائحة غريبة - مزيج من البخور والأعشاب العطرية وشيء آخر لا يمكن تحديده.

"الآن، ضعا القلادتين الفضيتين حول رقبتيكما."

فعل بيومي وسلمى ذلك، وشعرا بدفء غريب ينبعث من القلادتين، ينتشر في أجسادهما، يصل إلى قلبيهما وعقليهما.

"والآن، ضعا يديكما على القلادة الذهبية، كما فعلتما بالأمس."

مد بيومي وسلمى يديهما، ولمسا القلادة في نفس اللحظة. وكما حدث بالأمس، شعرا بموجة من الطاقة تسري من القلادة إلى أيديهما، ثم إلى أجسادهما بالكامل. لكن هذه المرة، كانت الطاقة أقوى، أعمق، أكثر تركيزاً.

"كررا ورائي،" قال أيوب، ثم بدأ يردد كلمات بلغة قديمة، غريبة، لم يسمعاها من قبل. لكن بطريقة ما، كانا يفهمان معناها، كأنها تتحدث مباشرة إلى أرواحهما، متجاوزة حاجز اللغة والعقل.

رددا الكلمات وراءه، وشعرا بشيء يتغير في داخلهما، كأن بوابات روحية تنفتح، كأن حجباً تُرفع، كأن معرفة قديمة، عميقة، تتدفق إلى وعيهما.

وفجأة، كما حدث بالأمس، تغير العالم من حولهما. الصحراء، الصخور، السماء، كل شيء بدأ يتلاشى، يتحول، يتبدل. لكن هذه المرة، لم يجدا نفسيهما في مكان آخر، بل في نفس المكان، لكن بطريقة مختلفة تماماً.

كانا ما زالا جالسين في دائرة الأحجار السوداء، لكن الأحجار الآن كانت تشع بضوء خافت، نابض، كأنها حية. السماء فوقهما لم تعد سماء الغروب العادية، بل مشهداً كونياً مذهلاً - نجوم بأحجام وألوان مختلفة، سدم وغازات كونية تتمايل وتتحرك، مجرات بعيدة تدور ببطء، كأنهما ينظران إلى الكون كله دفعة واحدة.

والأكثر إدهاشاً، كانا يريان خيوطاً من الضوء، رفيعة، متوهجة، تربط بينهما وبين القلادة، وبين القلادة والأحجار، وبين الأحجار والسماء، وبين كل شيء وكل شيء آخر. كأن الكون كله شبكة واحدة متصلة، كل جزء فيها مرتبط بكل الأجزاء الأخرى.

وفي وسط هذا المشهد المذهل، كان أيوب، لكنه لم يعد أيوب العادي. كان يبدو أكبر، أقوى، أكثر وضوحاً، كأنه يشع بضوء داخلي. وخلفه، كانت هناك أشكال أخرى، شفافة، غير واضحة المعالم، كأنها أشباح أو ذكريات - أشكال لأشخاص من أزمنة مختلفة، بملابس مختلفة، من ثقافات مختلفة. حراس سابقون للأسرار السبعة، يشهدون على هذه اللحظة، يباركون هذا الانتقال.

"أنتما الآن حراس للأسرار السبعة،" قال أيوب، وصوته يبدو أعمق، أقوى، كأنه يأتي من كل مكان في آن واحد. "حاملون للمعرفة القديمة، حافظون للحكمة الأبدية، ناقلون للنور عبر الظلام."

ثم، بنفس السرعة التي بدأت بها، انتهت الرؤية. وجد بيومي وسلمى نفسيهما مرة أخرى في العالم العادي، جالسين في دائرة الأحجار السوداء، يديهما على القلادة، التي توقفت الآن عن التوهج والنبض.

لكن شيئاً كان مختلفاً. شعرا بتغيير عميق في داخلهما، كأن شيئاً قد استيقظ، انفتح، تحرر. شعرا بوضوح جديد في رؤيتهما، بعمق جديد في فهمهما، بقوة جديدة في إدراكهما.

"الطقس اكتمل،" قال أيوب، صوته الآن عادي مرة أخرى، لكن فيه نبرة من الرضا والفخر. "أنتما الآن حراسان رسميان للأسرار السبعة."

أعاد أيوب القلادة إلى الصندوق الخشبي، وأغلقه بعناية. "ستشعران بتغييرات في الأيام والأسابيع القادمة. رؤية أوضح، فهم أعمق، إدراك أقوى. لا تقاوما هذه التغييرات، بل استقبلاها، تعلما منها، انموا معها."

نهضوا جميعاً، وغادروا دائرة الأحجار السوداء. كانت الشمس قد غربت بالكامل الآن، والنجوم بدأت بالظهور في السماء، تشع بضوء فضي خافت يلقي ظلالاً غريبة على الصحراء.

"غداً ستعودان إلى القاهرة،" قال أيوب. "ستبدآن العمل على الفيلم، ستستأنفان حياتكما العادية. لكن ستحملان معكما شيئاً جديداً، شيئاً سيغير نظرتكما للعالم، لأنفسكما، للآخرين."

"وماذا عنك؟" سأل بيومي.

"سأبقى هنا لبعض الوقت، ثم سأعود إلى الخرطوم. سنبقى على تواصل، وسألتقي بكما مجدداً عندما تكونان مستعدين للخطوة التالية."

في طريق العودة إلى المخيم، كان بيومي وسلمى صامتين، يحاولان استيعاب ما حدث، فهم التغيير الذي طرأ عليهما. كانا يشعران بمزيج غريب من المشاعر - دهشة، حيرة، خوف، حماس، كلها تمتزج معاً في تجربة فريدة لا يمكن وصفها بالكلمات.

في تلك الليلة، جلسا خارج كوخهما، يتأملان النجوم. كانت السماء صافية بشكل استثنائي، والنجوم تبدو أقرب، أكثر وضوحاً، كأنهما يريانها بعيون جديدة.

"هل تشعر بالاختلاف؟" سألت سلمى.

"نعم. كأن... كأن حجاباً قد رُفع. أرى الأشياء بوضوح أكبر، أشعر بها بعمق أكبر. حتى النجوم تبدو مختلفة - ليست مجرد نقاط ضوء، بل عوالم، قصص، إمكانيات."

"أشعر بالشيء نفسه. وأشعر أيضاً بشيء آخر... بارتباط. ارتباط بك، بهذا المكان، بالعالم كله. كأننا جميعاً جزء من نسيج واحد، متصل، متشابك."

أمسك بيومي يد سلمى برفق، وشعرا بدفء يسري بينهما، بتواصل أعمق من الكلمات، من اللمس الجسدي. كانا يشعران بأرواحهما تتواصل، تتفاهم، تتحد في لحظة من الفهم المطلق.

"مهما كان ما ينتظرنا،" قال بيومي، "أنا سعيد أننا في هذا معاً."

ابتسمت سلمى، وضغطت على يده. "وأنا أيضاً."

وبينما جلسا هناك، تحت سماء البجراوية المرصعة بالنجوم، محاطين بأهرامات صامتة وأسرار قديمة، شعر كلاهما بأن حياتهما قد تغيرت إلى الأبد، وأن رحلة جديدة، مثيرة، غامضة، قد بدأت للتو.

في صباح اليوم التالي، استيقظا مع شروق الشمس، وبدآ بتجهيز حقائبهما للعودة إلى القاهرة. كان هناك شعور غريب بالحزن لمغادرة البجراوية، كأنهما يتركان جزءاً من أنفسهما هنا. لكن كان هناك أيضاً شعور بالحماس للعودة، لبدء الفصل الجديد من حياتهما، لاستكشاف ما يعنيه أن يكونا حارسين للأسرار السبعة في العالم الحديث.

ودعا أيوب وعثمان عند مدخل المخيم. كان الوداع هادئاً، بسيطاً، لكنه حمل معنى عميقاً. لم تكن هناك حاجة للكثير من الكلمات - كان هناك فهم متبادل، ارتباط روحي، يتجاوز حدود اللغة والتعبير.

"سنلتقي مجدداً قريباً،" قال أيوب. "البجراوية ستنتظركما دائماً."

ركبا سيارة الدفع الرباعي التي ستقلهما إلى الخرطوم، ومن هناك سيأخذان طائرة إلى القاهرة. وبينما كانت السيارة تبتعد، نظرا إلى الخلف، إلى الأهرامات التي تتضاءل تدريجياً في الأفق، إلى البجراوية التي أصبحت الآن جزءاً من قصتهما، من هويتهما، من مصيرهما.

وفي قلبيهما، شعرا بالقلادتين الفضيتين تنبضان بدفء خفيف، كأنهما تذكرهما بمسؤوليتهما الجديدة، بمعرفتهما الجديدة، برحلتهما الجديدة. رحلة ستأخذهما إلى أعماق الأسرار السبعة، إلى قلب البجراوية، إلى جوهر الوجود نفسه.

الفصل التاسع: العودة إلى القاهرة

هبطت الطائرة في مطار القاهرة الدولي في الساعة الثالثة عصراً. كان الجو حاراً ورطباً، مختلفاً تماماً عن جفاف البجراوية الصحراوي. عبر النافذة، شاهد بيومي المدينة الضخمة تمتد إلى ما لا نهاية - أبراج شاهقة، مبانٍ متراصة، طرق مزدحمة، نهر النيل يشق طريقه وسط الكتلة الإسمنتية كشريان حياة أخضر.

بدت القاهرة غريبة الآن، مختلفة عما كانت عليه قبل أسبوعين فقط. ليس لأنها تغيرت، بل لأنه هو تغير. كأنه يراها بعيون جديدة، يدرك تفاصيل لم يلاحظها من قبل، يشعر بنبضها وروحها بطريقة مختلفة.

"يبدو الأمر كأننا كنا بعيدين لسنوات، وليس لأسبوعين فقط،" همست سلمى، وهي تنظر أيضاً عبر النافذة.

"أعرف ما تقصدين. كل شيء يبدو... مألوفاً وغريباً في آن واحد."

لمس بيومي القلادة الفضية المخفية تحت قميصه. كانت دافئة، نابضة بطاقة خفية، كأنها كائن حي صغير يستريح على صدره. منذ طقس التكريس، شعر بارتباط عميق بالقلادة، كأنها أصبحت جزءاً منه، امتداداً لروحه.

بعد إنهاء إجراءات الوصول واستلام حقائبهما، خرجا إلى صالة المطار المزدحمة. كان هناك ضجيج، حركة، فوضى منظمة - مسافرون يتدفقون في كل اتجاه، عائلات تلتقي بأحبائها، سائقو سيارات الأجرة ينادون على الزبائن المحتملين.

"سأوصلك إلى منزلك،" قال بيومي، وهما يتجهان نحو موقف سيارات الأجرة.

"شكراً، لكن لا داعي. يمكنني أخذ سيارة أجرة."

"أصر على ذلك. لا أريد أن أتركك بعد كل ما مررنا به معاً."

ابتسمت سلمى. كان هناك شيء جديد في علاقتهما، شيء تغير خلال رحلتهما إلى البجراوية. لم يعودا مجرد زميلين يعملان على مشروع مشترك، بل أصبحا... ماذا

بالضبط؟ شريكين؟ صديقين مقربين؟ أكثر من ذلك؟ لم يكن أي منهما متأكداً بعد، لكن كان هناك ارتباط، تفاهم، انجذاب، لا يمكن إنكاره.

استقلا سيارة أجرة إلى شقة سلمى في حي المعادي. كانت الرحلة عبر شوارع القاهرة المزدحمة تجربة حسية مكثفة - ضجيج السيارات، روائح الطعام من المطاعم الشعبية، ألوان اللافتات والإعلانات الصاخبة، حرارة الشمس عبر نوافذ السيارة، موسيقى شعبية صاخبة تنبعث من راديو السائق.

"كل شيء يبدو أكثر... حدة الآن،" قالت سلمى، وهي تنظر عبر النافذة. "الألوان أكثر إشراقاً، الأصوات أكثر وضوحاً، الروائح أكثر قوة."

"أعتقد أن هذا جزء مما تحدث عنه أيوب - الرؤية الأوضح، الإدراك الأقوى."

"هل تعتقد أن هذا سيستمر؟ أم أننا سنعتاد عليه تدريجياً؟"

فكر بيومي للحظات. "لا أعرف. ربما سنعتاد على المستوى الجديد من الإدراك، لكنني لا أعتقد أننا سنعود أبداً إلى ما كنا عليه قبل البجراوية."

وصلا إلى مبنى سلمى، بناية سكنية متوسطة الارتفاع في شارع هادئ نسبياً. كان المبنى قديماً لكن محافظاً على طابعه الكلاسيكي - واجهة حجرية، شرفات واسعة مزينة بنباتات متسلقة، مدخل فخم بباب خشبي ضخم.

"هل تريد الصعود لتناول الشاي؟" سألت سلمى، وهما يقفان أمام المبنى.

"بالتأكيد، إذا لم يكن ذلك متعباً لك بعد الرحلة."

"على العكس، أعتقد أننا بحاجة للتحدث، لمحاولة فهم ما حدث، ما سيحدث."

صعدا إلى شقة سلمى في الطابق الرابع. كانت شقة متوسطة الحجم، مضاءة جيداً بفضل النوافذ الكبيرة، مؤثثة بذوق بسيط وأنيق - أريكة بيضاء كبيرة، طاولة خشبية منخفضة، رفوف كتب تمتد من الأرض إلى السقف، لوحات فنية معاصرة على الجدران، نباتات داخلية خضراء في أركان الغرفة.

"شقة جميلة،" قال بيومي، وهو يتجول في غرفة المعيشة، متفحصاً الكتب واللوحات.

"شكراً. أحاول جعلها مساحة ملهمة للكتابة."

أعدت سلمى الشاي في المطبخ الصغير المفتوح على غرفة المعيشة، بينما جلس بيومي على الأريكة، يتأمل المدينة عبر النافذة الكبيرة. كانت القاهرة تمتد أمامه كبحر متلاطم من المباني والأضواء، النيل يلمع في المسافة تحت أشعة الشمس العصرية، قبة المتحف المصري تلوح في الأفق البعيد.

"هل تعلم،" قالت سلمى، وهي تضع صينية الشاي على الطاولة وتجلس بجانبه، "أنني أرى القاهرة الآن وكأنها نسخة حديثة من البجراوية. نفس الطاقة، نفس التاريخ المتراكم، نفس الأسرار المخبأة تحت السطح."

"أفهم ما تقصدين. كأن هناك طبقات وطبقات من الوجود، من الزمن، متراكمة فوق بعضها. وكأننا الآن نستطيع رؤية هذه الطبقات، الإحساس بها."

تناولا الشاي في صمت للحظات، كل منهما غارق في أفكاره، يحاول استيعاب التغييرات التي طرأت عليه، على علاقته بالعالم، بالآخر.

"ماذا سنفعل الآن؟" سألت سلمى أخيراً.

"بخصوص الفيلم؟"

"بخصوص كل شيء. الفيلم، الأسرار السبعة، حياتنا."

فكر بيومي للحظات. "أعتقد أننا سنبدأ بالفيلم. كما قال أيوب، سيكون جزءاً من دورنا كحراس. وسيلة لنقل جزء من المعرفة بطريقة يمكن للعالم المعاصر فهمها."

"لكن كيف سنفعل ذلك؟ كيف سنضمن أن الفيلم ينقل المعرفة الحقيقية، وليس مجرد قصة سطحية عن آثار قديمة؟"

"أعتقد أن هذا ما سنكتشفه تدريجياً. القلادة ستوجهنا، كما قال أيوب. وأعتقد أننا سنرى الأشياء بطريقة مختلفة الآن، سنلتقط تفاصيل وزوايا لم نكن لنلاحظها من قبل."

وضعت سلمى يدها على القلادة الفضية المخفية تحت قميصها. "أشعر بها طوال الوقت. كأنها تنبض، تتنفس، تفكر. هل تشعر بالشيء نفسه؟"

"نعم. وأحياناً... أحياناً أشعر كأنها تحاول إخباري بشيء، توجيهي نحو شيء."

"أنا أيضاً! البارحة، قبل مغادرتنا البجراوية، شعرت بالقلادة تسخن فجأة عندما مررنا بجانب أحد الأهرامات الصغيرة. كأنها كانت تحاول لفت انتباهي إلى شيء هناك."

"ربما هذه هي الطريقة التي ستوجهنا بها. إشارات خفية، توجيهات غير مباشرة."

صمتا مجدداً، يفكران في الأمر. كان هناك شيء مثير ومخيف في آن واحد في فكرة أن تكون القلادة كائناً واعياً، ذكياً، يتواصل معهما، يوجههما.

"بيومي،" قالت سلمى بعد لحظات، صوتها أكثر جدية، "هل أنت خائف؟"

فكر بيومي في السؤال بعمق. "جزء مني خائف، نعم. خائف من المجهول، من المسؤولية، من التغيير. لكن جزءاً آخر... متحمس. متلهف لاكتشاف ما ينتظرنا، لفهم الأسرار السبعة، لرؤية العالم كما هو حقاً."

"أشعر بالشيء نفسه. وأشعر أيضاً... بالامتنان. امتنان أننا في هذا معاً."

نظر بيومي إليها، عيناه تلتقيان بعينيها في لحظة من التفاهم العميق. "وأنا أيضاً."

كان هناك شيء في هذه اللحظة، شيء خاص، حميمي. شعر كلاهما بالقلادتين تسخنان قليلاً، تنبضان بإيقاع متناغم، كأنهما تستجيبان لمشاعرهما، لارتباطهما.

قطع اللحظة رنين هاتف بيومي. كان المتصل هو مدير الاستوديو الذي يعمل معه، يسأل عن موعد عودته وعن تقدم المشروع.

"نعم، عدنا اليوم... المشروع يسير بشكل ممتاز... نعم، لدينا مادة استثنائية... سأكون في الاستوديو غداً لنبدأ العمل على المونتاج..."

بعد إنهاء المكالمة، تنهد بيومي. "يبدو أن العالم الحقيقي يناديني."

ابتسمت سلمى. "العالم الحقيقي؟ أيهما حقيقي أكثر - عالم الاستوديوهات والمواعيد والمشاريع، أم عالم الأسرار السبعة والقلادة والبوابات؟"

ضحك بيومي. "نقطة جيدة. أعتقد أن علينا أن نتعلم العيش في العالمين معاً الآن."

"هل ستخبر أحداً عما حدث؟ عن القلادة، الأسرار السبعة، كل شيء؟"

فكر بيومي للحظات. "لا أعتقد ذلك. ليس الآن على الأقل. لا أعتقد أن أحداً سيصدقنا، وحتى لو صدقونا، لا أعرف إن كان من الحكمة مشاركة هذه المعرفة مع أي شخص في هذه المرحلة."

"أتفق معك. سنحتفظ بهذا بيننا، ونتعلم أكثر، نفهم أكثر، قبل أن نفكر في مشاركة أي شيء مع أي شخص."

نهض بيومي، مدركاً أن الوقت قد تأخر. "يجب أن أذهب. لدي الكثير من العمل للتحضير لبدء المونتاج غداً."

"بالطبع. سأبدأ في كتابة النص التعليقي للفيلم الليلة، وسأرسل لك المسودة الأولى غداً."

رافقته سلمى إلى الباب. كان هناك تردد في الهواء، كأن كلاً منهما يريد قول شيء أكثر، فعل شيء أكثر، لكن لا يعرف كيف.

"سلمى،" قال بيومي أخيراً، "أنا سعيد حقاً أننا في هذا معاً."

ابتسمت سلمى ابتسامة دافئة. "وأنا أيضاً."

للحظة، بدا كأنهما سيتعانقان، أو ربما أكثر من ذلك. لكن شيئاً أوقفهما - ليس خوفاً أو تردداً، بل إدراكاً أن هناك وقتاً لكل شيء، وأن علاقتهما الآن أعمق وأكثر تعقيداً

من مجرد انجذاب عاطفي. كانا مرتبطين الآن بطريقة تتجاوز الجسد، تتجاوز حتى العقل والعاطفة - ارتباط روحي، كوني، أبدي.

"سأراك غداً في الاستوديو،" قال بيومي.

"إلى الغد."

خرج بيومي من المبنى إلى شوارع القاهرة المسائية. كانت المدينة تتحول الآن، مع غروب الشمس، إلى كائن مختلف - أكثر حيوية، أكثر صخباً، أكثر سحراً. الأضواء تشتعل في كل مكان، الناس يملؤون الشوارع والمقاهي، الموسيقى تنبعث من نوافذ السيارات والمحلات، رائحة الطعام تملأ الهواء.

استقل سيارة أجرة إلى شقته في وسط المدينة. كان المبنى الذي يعيش فيه قديماً، من العصر الملكي، بواجهة كلاسيكية أنيقة وسلالم رخامية واسعة. شقته في الطابق الثالث كانت فسيحة، مضاءة جيداً، مؤثثة بمزيج من الأثاث العصري والقطع العتيقة التي جمعها من أسفاره.

دخل إلى الشقة، ألقى حقيبته على الأريكة، وتوجه مباشرة إلى غرفة عمله. كانت غرفة واسعة، مخصصة للتصوير والمونتاج، مجهزة بأحدث المعدات - كمبيوتر متطور، شاشات عرض كبيرة، معدات إضاءة، كاميرات وعدسات من مختلف الأنواع والأحجام.

بدأ بتفريغ المواد التي صورها في البجراوية - ساعات من اللقطات للأهرامات، المعابد، المناظر الطبيعية، المقابلات مع أيوب وعثمان وبعض السكان المحليين. كانت المادة غنية، متنوعة، مثيرة. لكنه أدرك الآن أنها مجرد سطح، قشرة خارجية لحقيقة أعمق بكثير.

كيف يمكنه صنع فيلم ينقل جوهر ما اكتشفه في البجراوية؟ كيف يمكنه التعبير عن الأسرار السبعة، عن القلادة، عن البوابات، عن التجربة الروحية العميقة التي مر

بها؟ كيف يمكنه مشاركة هذه المعرفة مع العالم، دون أن يبدو مجنوناً، دون أن يخون سر الحراس؟

جلس أمام الكمبيوتر، يتصفح اللقطات، يفكر في بنية الفيلم، في رسالته، في هدفه. وبينما كان يعمل، شعر بالقلادة الفضية تسخن قليلاً، تنبض بإيقاع خفيف، كأنها توجهه، تلهمه، تساعده على رؤية الصورة الأكبر.

وفجأة، جاءته الفكرة - ليس فيلماً وثائقياً تقليدياً عن آثار قديمة، بل رحلة شخصية، رحلة اكتشاف، رحلة تحول. فيلم يتبع رحلته هو وسلمى إلى البجراوية، كيف غيرتهما هذه الرحلة، كيف فتحت أعينهما على حقائق جديدة، على رؤية جديدة للعالم.

لن يتحدث صراحة عن القلادة أو الأسرار السبعة أو البوابات، لكنه سيلمح إليها، سيخلق صوراً وأصواتاً ومشاهد توحي بها، تثير في المشاهد نفس الشعور بالغموض، بالعمق، بالاتصال الكوني الذي شعر به هو.

بدأ يكتب مخططاً للفيلم، متحمساً، ملهماً، كأن القلادة نفسها تملي عليه الكلمات، الصور، الأفكار. وبينما كان يكتب، شعر بشيء يتغير في داخله، يتطور، ينمو. كأن وعيه يتسع، يتعمق، يصل إلى مستويات جديدة من الفهم والإدراك.

عمل حتى ساعة متأخرة من الليل، منغمساً تماماً في المشروع، في الرؤية الجديدة، في الرسالة التي يريد إيصالها. وعندما أنهى أخيراً المخطط الأولي للفيلم، شعر بإرهاق عميق لكن مُرضٍ، كإرهاق متسلق جبال وصل إلى قمة عالية بعد رحلة شاقة.

خرج إلى شرفة شقته، ونظر إلى سماء القاهرة الليلية. كانت النجوم خافتة بسبب أضواء المدينة، لكنه استطاع رؤية بعضها، تلمع بخجل في السماء السوداء.

وللحظة، شعر بارتباط عميق بهذه النجوم، بالكون كله، كأنه جزء من نسيج كوني واحد، متصل، متناغم.

لمس القلادة الفضية، وهمس: "شكراً."

لم يكن متأكداً ممن يشكر بالضبط - القلادة، أيوب، القدر الذي قاده إلى هذه المغامرة، أو ربما قوة أكبر، أعمق، أقدم من كل هؤلاء. لكنه شعر بامتنان عميق، حقيقي، لهذه الرحلة التي بدأت للتو، لهذا التحول الذي يمر به، لهذا الباب الذي انفتح أمامه على عالم من الاحتمالات والأسرار لم يكن يتخيله من قبل.

في صباح اليوم التالي، استيقظ بيومي باكراً، منتعشاً رغم قلة النوم. كان هناك شعور بالحماس، بالطاقة، بالهدف، لم يشعر به منذ سنوات. تناول إفطاراً سريعاً، ثم توجه إلى الاستوديو، حاملاً معه المخطط الذي كتبه ليلاً والمواد التي صورها في البجراوية.

كان الاستوديو يقع في مبنى حديث في منطقة المهندسين، مجهز بأحدث التقنيات والمعدات. عندما وصل، وجد سلمى تنتظره في الردهة، ترتدي قميصاً أزرق فاتحاً وبنطالاً جينز، شعرها مربوط بشكل أنيق، وعلى وجهها ابتسامة متحمسة.

"صباح الخير!" حيته بحماس. "لم أستطع النوم من الإثارة. لدي أفكار كثيرة للنص التعليقي."

"وأنا أيضاً! عملت حتى وقت متأخر على مخطط جديد للفيلم. أعتقد أنك ستحبينه."

دخلا إلى غرفة المونتاج، غرفة واسعة مجهزة بشاشات عرض كبيرة وأجهزة كمبيوتر متطورة. كان هناك شخصان آخران ينتظرانهما - كريم، مهندس الصوت، وفريدة، مساعدة المونتاج. كلاهما كانا يعملان مع بيومي منذ سنوات، وكانا متحمسين لرؤية المواد الجديدة.

"أهلاً بالعائدين من الصحراء!" رحب بهما كريم بابتسامة عريضة. "هل أحضرتما لنا كنوزاً مدفونة؟"

"أكثر مما تتخيل،" أجاب بيومي، مبتسماً.

بدؤوا العمل على الفور. عرض بيومي المخطط الجديد للفيلم، شارحاً رؤيته للمشروع - ليس مجرد فيلم وثائقي عن آثار، بل رحلة شخصية، قصة تحول واكتشاف.

"هذا... مختلف عما ناقشناه قبل سفرك،" قالت فريدة، متفاجئة قليلاً. "كنت تتحدث عن فيلم تقليدي عن الآثار والتاريخ."

"أعرف. لكن البجراوية غيرت نظرتي. غيرتنا."

نظر إلى سلمى، التي أومأت موافقة. "البجراوية ليست مجرد موقع أثري. إنها تجربة، رحلة، تحول. وهذا ما نريد نقله في الفيلم."

بدؤوا بمشاهدة المواد التي صوروها. كانت اللقطات مذهلة - الأهرامات تحت ضوء الفجر، المعابد في غروب الشمس، الصحراء تمتد إلى ما لا نهاية، وجوه السكان المحليين تحكي قصصاً من الماضي البعيد.

"هذه اللقطات استثنائية،" قال كريم، منبهراً. "هناك شيء... مختلف فيها. كأنها تحمل عمقاً، بُعداً إضافياً."

"هذا ما شعرنا به أيضاً،" قالت سلمى. "البجراوية لها طاقة خاصة، تؤثر حتى في الصور التي تلتقطها منها."

عملوا طوال اليوم على تصنيف المواد، اختيار اللقطات، بناء التسلسل الأولي للفيلم. كان هناك تناغم غريب بينهم جميعاً، كأن القلادتين اللتين يرتديهما بيومي وسلمى تؤثران في الجو العام، تخلقان مساحة من الإبداع المشترك، من الفهم العميق.

في فترة الغداء، خرج بيومي وسلمى إلى مطعم قريب، تاركين كريم وفريدة يعملان على معالجة بعض اللقطات. جلسا في ركن هادئ، يتناولان الطعام ويتحدثان بصوت منخفض.

"هل لاحظت كيف تفاعل كريم وفريدة مع المواد؟" سألت سلمى. "كأنهما يشعران بشيء، حتى دون أن يعرفا القصة الكاملة."

"نعم. أعتقد أن هذا جزء مما تحدث عنه أيوب - القلادة تؤثر ليس فقط فينا، بل في كل من حولنا، في كل ما نفعله."

"هل تعتقد أنهما سيلاحظان القلادتين؟ أو سيشكان في شيء؟"

فكر بيومي للحظات. "لا أعتقد ذلك. القلادتان مخفيتان تحت ملابسنا، وحتى لو رأوهما، سيعتقدون أنهما مجرد حلي عادية. والتغييرات التي نمر بها داخلية أكثر منها خارجية."

"صحيح. لكنني أشعر أحياناً... كأن القلادة تريد أن تُرى، أن تُعرف. كأنها تضغط من الداخل، تحاول الخروج إلى النور."

"أعرف ما تقصدين. لكن أيوب حذرنا من مشاركة المعرفة قبل أن نفهمها بشكل كامل، قبل أن نعرف من هم مستعدون لها حقاً."

"أتفق معك. سنحتفظ بالسر لأنفسنا، حتى نفهم أكثر، حتى نكون مستعدين."

عادا إلى الاستوديو واستمرا في العمل حتى وقت متأخر من المساء. كان التقدم سريعاً، مثمراً، كأن الفيلم يتشكل بنفسه، يخرج من أعماقهما، موجهاً بقوة خفية، ذكية.

عندما غادرا الاستوديو أخيراً، كانت القاهرة قد غرقت في الظلام، النجوم تلمع فوقها، أضواء المدينة تتلألأ كبحر من الجواهر المتوهجة.

"هل تريدين أن أوصلك إلى المنزل؟" سأل بيومي.

"شكراً، لكنني سآخذ سيارة أجرة. أنت متعب، وشقتك في الاتجاه المعاكس."
"حسناً. سأراك غداً إذن."
"بيومي،" قالت سلمى فجأة، قبل أن يفترقا، "هل تشعر أحياناً... كأن كل هذا حلم؟ كأننا سنستيقظ يوماً ما ونكتشف أن البجراوية، القلادة، الأسرار السبعة، كل شيء كان مجرد وهم، خيال؟"
فكر بيومي للحظات. "أحياناً، نعم. لكن ثم ألمس القلادة، وأشعر بها تنبض، تتنفس، وأعرف أن كل هذا حقيقي. أكثر حقيقة من أي شيء آخر في حياتي."
ابتسمت سلمى. "أنا أيضاً."
افترقا، كل منهما يتجه إلى منزله، لكن كلاهما يشعر بالارتباط، بالقرب، رغم المسافة الجسدية. كأن القلادتين تخلقان جسراً بينهما، رابطاً روحياً لا ينقطع.
في الأيام التالية، استمرا في العمل على الفيلم بحماس وتركيز. كان المشروع يتطور بسرعة، يتخذ شكلاً فريداً، مميزاً - مزيجاً من الوثائقي التقليدي والسرد الشخصي والتأمل الفلسفي.
وفي كل يوم، كانا يكتشفان شيئاً جديداً عن القلادتين، عن قدراتهما الجديدة، عن التغييرات التي تحدث في داخلهما. كانا يريان العالم بوضوح أكبر، يفهمان الناس بعمق أكبر، يشعران بالارتباط بكل شيء من حولهما بقوة أكبر.
وفي كل ليلة، كان كل منهما يحلم بالبجراوية، بالقلادة الذهبية، بالبوابة السابعة. أحلام حية، واضحة، كأنها ذكريات أو رؤى أكثر منها أحلاماً. وفي هذه الأحلام، كانا يتعلمان، يكتشفان، يفهمان المزيد عن الأسرار السبعة، عن دورهما كحراس، عن المعرفة القديمة التي أصبحت الآن جزءاً منهما.
وبينما كان الفيلم يتشكل، كانت علاقتهما أيضاً تتطور، تتعمق، تتحول إلى شيء أكبر من الصداقة، أعمق من الحب العادي. كانا يشعران بارتباط روحي، كوني،

أبدي، كأن أرواحهما تعرف بعضها منذ بداية الزمن، وستستمر في معرفة بعضها حتى نهايته.

وفي كل هذا، كانت القاهرة تحيط بهما - صاخبة، نابضة بالحياة، مليئة بالتناقضات والألغاز والجمال. مدينة قديمة وحديثة في آن واحد، مثلهما تماماً - تقف بقدم في الماضي السحيق وقدم في المستقبل المجهول، تحمل في قلبها أسراراً وحكايات وحقائق تنتظر من يكتشفها، من يفهمها، من يحميها ويشاركها مع العالم.

مرت ثالثة أسابيع منذ عودة بيومي وسلمى من البجراوية

لم يكن أي منهما يتخيل آنذاك كيف ستتغير حياتهما في السنوات القليلة القادمة. كيف ستقودهما الأسرار السبعة إلى مغامرات في أقاصي الأرض، من صحاري السودان إلى جبال النوبة، ومن أهرامات الجيزة إلى واحات سيوة. كيف سيجدان في بعضهما البعض ليس فقط شريكاً في رحلة البحث عن الحقيقة، بل شريكاً في الحياة.

بعد أشهر من ذلك اليوم، وبعد سلسلة من الأحداث المذهلة التي كشفت لهما جزءاً من أسرار القلادات، قرر بيومي وسلمى توحيد حياتهما رسمياً. كان زفافهما بسيطاً، حضره الأصدقاء المقربون فقط، في حديقة صغيرة على ضفاف النيل. كانت سلمى ترتدي فستاناً أبيض بسيطاً، وبيومي بدلة زرقاء داكنة، وكانا يرتديان القلادتين الفضيتين فوق ملابسهما، كشاهدين صامتين على اتحادهما.

وبعد عام من زواجهما، رزقا بطفلهما الأول، ياسين، الذي ولد في ليلة عاصفة في الخرطوم، أثناء رحلتهما لاستكشاف المزيد من أسرار البجراوية. كان ياسين طفلاً استثنائياً، بعينين عسليتين عميقتين كعيني أمه، وفضول لا ينضب كوالده. ومنذ ولادته، لاحظا أنه ينجذب بشكل غريب إلى القلادتين، يحاول الوصول إليهما بيديه الصغيرتين كلما اقتربتا منه.

استقر بيومي وسلمى في القاهرة، حيث واصل بيومي عمله كمخرج سينمائي، وأصبحت سلمى كاتبة وباحثة في التاريخ القديم. لكنهما لم يتوقفا أبداً عن البحث في أسرار القلادات والبجراوية، مستغلين كل فرصة للسفر واستكشاف المزيد من الخيوط المتشابكة لهذا اللغز القديم.

وفي صباح أحد الأيام، تلقى بيومي اتصالاً من منتج كويتي يدعى عبد الله النواف، يعرض عليه تصوير فيلم وثائقي عن تاريخ الغوص على اللؤلؤ في الخليج العربي. كانت فرصة مهنية رائعة لا يمكن تفويتها، لكنها جاءت في توقيت صعب، حيث كانت سلمى منشغلة برعاية ياسين الذي كان يمر بوعكة صحية خفيفة.

"يجب أن تذهب،" قالت سلمى بعد أن ناقشا الأمر طويلاً. "هذه فرصة كبيرة لك، وقد تجد هناك أيضاً بعض الإجابات عن الأسرار السبعة. لقد قرأت أن هناك روايات قديمة تربط بين لآلئ الخليج وبعض الطقوس القديمة المرتبطة بالنجوم السباعية."

"لكن ماذا عنك وعن ياسين؟" سأل بيومي بقلق.

ابتسمت سلمى وهي تحمل طفلهما النائم بين ذراعيها. "سنكون بخير. ما هي إلا أسابيع قليلة، وستعود إلينا. وسنكون معك بقلوبنا في كل خطوة."

وهكذا، حزم بيومي حقائبه، وودع زوجته وطفله، متوجهاً إلى الكويت في رحلة جديدة، غير مدرك أن هذه الرحلة ستكشف له المزيد من أسرار القلادات، وستقوده إلى اكتشاف مذهل سيغير فهمه للتاريخ والأساطير القديمة إلى الأبد.

الفصل العاشر: سر لؤلؤة الخليج المدفونة

التصقت عينا بيومي سعيد بنافذة الطائرة الصغيرة وهو يشهد تحول المشهد تحته من زرقة البحر اللانهائية إلى صحراء ذهبية تتخللها بقع خضراء نادرة تلمع كالجواهر المبعثرة على بساط من حرير. "هذه هي الكويت إذن،" همس لنفسه بينما تلمع أشعة الشمس الغاربة على زجاج ناطحات السحاب البعيدة، وكأن المدينة ترسم خطوطاً من نور لترشده إليها.

أخرج بيومي القلادة الفضية من تحت قميصه، متأملاً النجمة السباعية المنقوشة عليها. كانت دافئة بشكل غريب، كأنها تستجيب لاقترابه من هذه الأرض الجديدة. تذكر كلمات سلمى قبل سفره: "قد تجد هناك بعض الإجابات عن الأسرار السبعة. هناك روايات قديمة تربط بين لآلئ الخليج والنجوم السباعية."

لم تكن هذه مجرد رحلة عمل بالنسبة لبيومي. كان مخرجاً سينمائياً مصرياً، جاء إلى الكويت لتصوير فيلم وثائقي عن تاريخ الغوص على اللؤلؤ. لكن في أعماقه، كان يبحث عن قصة مختلفة، قصة لم تُروَ بعد. كان يبحث عن شيء يلامس الروح، عن حكاية تتجاوز السرد التقليدي الذي يُعرض في المتاحف والكتب الرسمية.

شعر بيومي بوخزة خفيفة في قلبه وهو يتذكر زوجته سلمى الشاهد، التي اعتذرت عن مرافقته في هذه الرحلة بسبب ظروف خاصة تتعلق بطفلهما الصغير ياسين. كانت رسالتها الأخيرة لا تزال تتردد في ذهنه: "سأكون معك بقلبي يا بيومي، أنهِ هذا المشروع بسرعة وعُد إلينا." تنهد بعمق وهو يضع هاتفه جانباً، متسائلاً كيف ستكون رحلته هذه بدونهما.

كان قد مضى ستة أشهر فقط منذ عودته من رحلة تصوير فيلمه الوثائقي في السودان، حيث أنجبت سلمى طفلهما الأول ياسين. كانت تلك الفترة من أسعد فترات حياته، يستيقظ كل صباح على ضحكات طفله وابتسامة زوجته. لكن دعوة تصوير

فيلم جديد في الكويت كانت فرصة لا يمكن تفويتها، رغم أنها جاءت في توقيت صعب.

عندما هبطت الطائرة، شعر بيومي بموجة من الهواء الحار تستقبله بمجرد فتح الباب. "حرارة مختلفة عن مصر،" فكر بينما يعدل نظارته الشمسية. كان المطار أشبه بمدينة مصغرة – نظيفة، منظمة، مليئة بالإشارات المكتوبة بخطوط عربية أنيقة تتدلى من السقف.

في صالة الوصول، رأى بيومي رجلاً واقفاً بالقرب من بوابة الخروج، يرتدي دشداشة بيضاء ناصعة تكاد تلمع تحت الأضواء الكاشفة. عبد الله النواف، المنتج الكويتي الذي لم يره إلا في صور عبر الإيميل. كان يمسك لوحة كتب عليها اسم بيومي بخط عربي مزخرف، بينما يتابع شاشة هاتفه الذكي باهتمام.

الفصل الحادي عشر: أصداء الماضي ونبض المستقبل

مرت ثلاث سنوات على عودة بيومي سعيد من رحلته إلى الكويت واكتشافه لسر لؤلؤة الخليج المدفونة. كانت سنوات حافلة بالعمل والإنجاز، تحول خلالها "استوديو الكاميرا والقلب" الذي أسسه مع زوجته سلمى إلى مركز ثقافي مهم في القاهرة، يقصده الشباب المهتمون بفنون السينما من مختلف أنحاء مصر والعالم العربي.

كانت القاهرة عالماً مختلفاً تماماً عن الإسكندرية. هنا، كل شيء أسرع، أكثر صخباً، أكثر كثافة. المباني تتزاحم حتى تحجب السماء، والشوارع تضج بالسيارات والناس على مدار الساعة، والهواء ثقيل بدخان العوادم ورائحة الطعام المتنوعة من المطاعم المنتشرة في كل زاوية.

نهر النيل يشق المدينة كشريان حياة وسط الكتل الخرسانية، يمنحها لحظات من الهدوء والجمال وسط الضجيج. على ضفافه، تقف الفنادق الفخمة والمطاعم العائمة، وتبحر المراكب السياحية محملة بالضحكات والموسيقى.

في القاهرة، كان الزمن يركض. الناس دائماً في عجلة من أمرهم، يتنقلون بين العمل والدراسة والترفيه بإيقاع محموم. المدينة لا تنام أبداً، فعندما تهدأ حركة النهار، تبدأ حياة الليل بأضوائها الملونة وموسيقاها الصاخبة.

كان حلم بيومي منذ صغره أن يصبح مخرجاً سينمائياً، ولم تكن هوايته في التصوير إلا خطوة أولى نحو هذا الحلم. بعد تخرجه من الثانوية العامة، تقدم بيومي بأوراقه إلى المعهد العالي للسينما في القاهرة، مرفقاً معها ملفاً من الصور التي التقطها على مدار السنوات الماضية.

كانت المنافسة شديدة، فالمعهد لا يقبل سوى عدد محدود من الطلاب كل عام. لكن موهبة بيومي في التقاط الصور التي تحكي قصصاً كاملة، وشغفه الواضح بالسينما، جعلا لجنة القبول تمنحه فرصة الالتحاق بقسم الإخراج السينمائي.

"أنت لا تلتقط صوراً فحسب، بل تروي قصصاً،" قال له رئيس لجنة القبول. "هذا بالضبط ما نبحث عنه في مخرجي المستقبل."

كان بيومي يسافر أسبوعياً من الإسكندرية إلى القاهرة لحضور محاضراته في معهد السينما، مستمتعاً بالتنقل بين المدينتين رغم إرهاق السفر.

في صباح يوم ربيعي دافئ، جلس بيومي في شرفة منزله بحي المعادي، يراقب ابنه ياسين ذا السنتين وهو يلهو في حديقة المنزل الصغيرة. كان الطفل يشبه أباه بشكل لافت، خاصة في عينيه الواسعتين اللتين تنظران إلى العالم بفضول لا ينتهي.

"ياسين، لا تبتعد كثيراً!" نادته سلمى وهي تخرج من المطبخ حاملة صينية الإفطار.

ابتسم بيومي وهو يتأمل زوجته التي ازدادت جمالاً ونضجاً مع مرور السنوات. كانت سلمى قد تولت إدارة الاستوديو بكفاءة عالية، بينما انشغل هو بإخراج فيلمه الجديد "أطياف الصحراء"، الذي تناول قصة عائلة مصرية مهاجرة تبحث عن هويتها بين الشرق والغرب.

"البريد وصل للتو،" قالت سلمى وهي تضع أمامه مظروفاً أنيقاً يحمل طابعاً فرنسياً. "يبدو رسمياً."

فتح بيومي المظروف بفضول، وما إن قرأ محتواه حتى اتسعت عيناه دهشة.

"ما الأمر؟" سألته سلمى وهي تجلس بجانبه.

"دعوة من مهرجان كان السينمائي... يريدونني في لجنة التحكيم هذا العام."

"هذا رائع!" هتفت سلمى بحماس. "فيلمك الجديد يفتح لك أبواباً لم تكن متخيلة."

كان "أطياف الصحراء" قد حقق نجاحاً عالمياً غير مسبوق، وحصد جوائز في مهرجانات دولية مرموقة، آخرها جائزة أفضل فيلم في مهرجان برلين السينمائي. لم يكن بيومي يتوقع أن يصل صدى فيلمه إلى هذا المدى، وأن يلقى هذا الترحيب العالمي.

“هناك شيء آخر،” أضاف وهو يخرج ورقة أخرى من المظروف. “إنها دعوة خاصة من المخرجة الفرنسية إيزابيل دوبوا للمشاركة في مشروع سينمائي دولي ضخم.”

LOVE

حب على شاطئ الأحلام

رواية "حب على شاطئ الأحلام" هي قصة رومانسية تجمع بين بيومي وسلمى، شخصين مختلفين في خلفياتهما ولكن يجمعهما حب الفن والحياة.

تبدأ القصة في مدينة الإسكندرية حيث يلتقي بيومي، الشاب الذي يحب التصوير الفوتوغرافي، بسلمى، الطالبة في معهد السينما. يجمعهما حب البحر، حيث يقضي بيومي معظم وقته على الشاطئ ليلتقط الصور ويبحث عن اللحظات المثالية التي تعبر عن الجمال الحقيقي للمكان. في إحدى زيارات سلمى لمدينة الإسكندرية، تلتقي ببيومي وتبدأ بينهما علاقة فكرية وفنية، حيث تشارك سلمى في تأملات بيومي حول الفن والحياة. وتكتشف سلمى في بيومي موهبة حقيقية في التصوير، وتحفزه للتفكير في الالتحاق بمعهد السينما، وهو ما يحدث لاحقاً.

تدور الرواية حول الحلم والفن، وكيف يمكن للفن أن يكون وسيلة لاكتشاف الذات. بينما يسعى بيومي لتحقيق حلمه في عالم السينما، يجد نفسه محاطًا بتحديات قرارات حياته بين الإسكندرية والقاهرة. يبدأ بيومي في اتباع حلمه مع دعم سلمى التي تشاركه رؤيتها للسينما، ويشعر بأن حياته على وشك التغيير بعد أن بدأ يلتقط صورًا جديدة للحياة ولأشخاص مدينته.

الرواية تسلط الضوء على الفلسفة والفن من خلال حوارات عميقة بين الشخصيات، حيث يتناقش بيومي وسلمى حول السينما كوسيلة لإيصال الحقيقة، وعلاقتهما تتطور من علاقة فنية إلى علاقة عاطفية تزداد عمقًا مع مرور الوقت.

هي رحلة حب واكتشاف الذات بين بيومي وسلمى، حيث يكتشفان معًا عوالم الفن والحياة ويواجهان تحديات الحياة الحقيقية، مع تسليط الضوء على الإسكندرية كمكان يمثل الإلهام والفن بالنسبة لهما.

محمد أحمد الصغير علي عيد